أحلام على حافة اليقظة

أحلام على حافة اليقظة

قصص قصيرة
جمال بربري
الطبعة الأولى : ٢٠١٩
رقم الإيداع : ٢٧٥١٣ / ٢٠١٩
ISBN 978-977-6739-22-2
٩٦ ص ، ٢٠ سم
الناشر: الحسناء للنشر والتوزيع
{جميع الحقوق محفوظة ©}
التوزيع لجميع أنحاء العالم

الإسكندرية
ج . م . ع

المراجعة اللغوية: عادل أبو الأنوار
غلاف وإخراج فني: أمير مصطفى

أحلام على حافة اليقظة

قصص قصيرة

جمال بربري

إضافة
للنشر والتوزيع

إهداء

إلى القلوب التى لا تقف عند معنى كلمة حلم ولا غدا أفضل بل تمشي قدما متحدية كل الصعاب..

إلى القلوب التى عزفت سيمفونية العطاء بدون الآلات الموسيقية أو فرق الأوركسترا أو حتى نوتة..

لم أكن سوى قطعة صغيرة من الوجع التحمت فى يدى اليابسة ذات الشقوق ورقة وقلم وأحلام سقطت على تلك الأوراق البيضاء فأحالتها أملا إلى المبدعة التى تعلمت منها كيف أكتب حروفا تستحق أن تخلد..

أمى مهدية أمانى..

إلى أبى العزيز الدكتور عابد خطاب الذى منحنى لقب صانع الخبز والدهشة وملح الأرض..

وإلى استاذى وصديقى جمال الطيب الذى تعلمت منه أشياء لم أكن أعرفها الكرامة فوق كل شىء.

بداية الحكايات

في لحظة ما حاولت التخلي عن روحي المنغمسة في براءة الصدق وظلمة الطرقات، والواقع المظلم في حواري مدننا الحزينة.. حاولت الكتابة في ظل ما يسمى بالاحترافية والصنعة، لكنني شعرت بأنني شخص آخر..

لم أحتمل..

لم تخرج روحي من عتمة جسدي لتسكن الورق.

لم تتجسد شخصياتي أمامي من زرقة دخان سجائري عمياء، فأقودها كالمعتاد عبر الكلمات والدروب المعتمة أجنة متعثرة تحمل جزءًا..

في الحقيقة لقد اصطدمت بشخص آخر لم أعرف فيه ملامحي..

لست كاتبا محترفا.. ولكنني إنسان قلق.. أبحث بين السطور عن روحي المشتتة بين الرهافة التي جبلها الله عليها، وقسوة واقع يومي يضطهد فينا كل جميل.

روحي، التي لا تأمل سوى في انتظار شروق شمس يومها الجديد بلا هم..

بلا خوف..

بلا عذاب..

* * *

بطون خاوية

يعود "صابر" مع غروب الشمس إلى جحره الطيني، الجاثم في ذلك الزقاق على أطراف البلدة.. يدلف من الباب القديم الذي لا يحمل من هيئة الباب سوى مكانه الساتر لما خلفه من فقر وكآبة، ولكنه في الحقيقة لا يتعدى بضع ألواح قديمة منتفخة من الماء والرطوبة، متراصة في كيان واحد، تصدر مع كل حركة صريرًا كئيبا ومزعجًا. يضع "صابر" جوالا يحوي ملابس عمله المتعرقة، ويرسل صوتا متهالكا ومتعبًا في أنحاء المكان، يستدعي أفراد أسرته الصغيرة.. فتهرول نحوه زوجته وأفواه أطفاله الصغار تهتف باسمه.

للحظة يشعر بالسعادة تسري في عروق جسده المتعب، يغادر بروحه شرنقة أحزانه ويهرول بقدمين عاريتين على مرج من العشب الأخضر.

بطرف عينه يلمح من خلال سقف لا وجود له سرب حمام يشق السماء فوق داره، فجأة سقطت أمامه حمامة بيضاء، يبدو أنّه أصابها بعض التعب والإعياء، يهرول ناحيتها، تطير مسافة بسيطة.. تعتلي بناية عالية، يتأمّلها وهى تنظر ناحية السرب، تلتقي العيون في لحظة صمت رهيب..

يغيّر كل واحد منهم اتجاه نظراته نحو السماء، وكأنهما يشكوان إلى رب السماء.

تستجمع الحمامة قواها وتطلق جناحيها في الفضاء، تبزغ ابتسامة من روحه المعذبة والتي دائمًا ما تئن ولا يسمع صوت صراخها سواه.

تخرج منه تنهيدة.

ربما نحزن..

لكن ما باليد حيلة، والحمد لله على كل حال، تلك الكلمة التي يجب أن تقال مهما كانت الصعوبات والظروف القاسية، هكذا انطلق مهرولًا نحو الرزق الذي سقط من السماء.

يخرج من البيت باحثًا عن أسبابِ سعادة لا توجد، يحاول أن ينثر الابتسامة على الوجوهِ التعيسة، التي تقاسمه المِحن وقسوةَ الحياة، يحاول أن يقتل معهم بين أكواب الشاي والنكات حزنًا وكآبة وهمًّا لا ينتهي.

تلتهبُ ظهورهم نهارًا بسياط الحاجة، وفي المساءِ يتقاسمون الحكايات محاولين قتل الوقت.. وكأنهم يستوقفون طاحونة الحياة للحظات، يلتقطون فيها الأنفاس، ويتناسون ملوحة عرق النهار.

في اليوم التالي تشرقُ الشمسُ، كعادتها، لتلهبَ أجسادَهم الهزيلة بحرارة أشعتها.

يخرج "صابر" تاركًا همومه وراءَ ظهره الذي يزداد انحناءً كل يوم، ينظر إلى السماء محاولا رسم ابتسامة تليق بجلال صباح جديد.

- افرجها يا رب.

يراود مسامعه صدى صوت خطيبِ الجمعة، الذي لم يقتنع يومًا بكلامه، مع أنه لم يشك فيه لحظة.

- يسقط الرزق على عباد الله من السماء كما المطر.

هكذا قال شيخ الجامع الورع صاحب اللحية البيضاء الكثيفة، نعم، الرزق في السماء وسوف ينزل مع المطر، ولأننا لا نعلمُ الموعدَ لا بد أن ننتظر!

ها هي سحب السماء تتعانق حاملة القلق.. هل هو الرزق، أم هي السيول تستعد لهدم جحور الزقاق، الطينية، لتنهي هذا الفصل من حياتهم البائسة...

ما زال يجلس على رصيف الذلّ والانتظار، كرجل مقهور، مجبر على العمل، يريد العودةَ كل يومٍ لبيته محملاً بأكياس الخُضر والفاكهة.

- قف يا حمار، تعال هنا.

لم يتبين مصدرَ الصوتِ جيدًا، لكنه جاءه هذه المرة حادًا كصريرِ بابٍ صدئ. رجلٌ يرتدي جلباباً أسود، ينتعل حذاءً ثقيلا قاتمًا،

يحمل في يده عصا غليظة نبت أمامه فجأة، وراح يردد في وجهه بلا توقف:

- تعال يا حمار أنت وهو، الشغل اتأخر معي.. اركب أنت وهو.

سار خلفه منكسًا رأسه دون أن يمنح نفسه فرصة للرد

"الرزق على الله يا باشا"، لكن الباشا يملك أقوى الأسلحة.. المال.. قوت العيال.

مضى اليوم ثقيلاً جدًا وهو ما زال ينظر إلى السماء، ويفكر في الأرض، نقَّده المقاول مبلغًا زهيدًا لا يكفي لتجفيف عرقه عن ذلك اليوم، أنفق جميعه لشراء الخبز والفول والعدس، "لا بأس به من طعام نحمد الله عليه طالما لا يوجد في الجيب ما يشترى أفضل منه".

على شجرة قريبة عصفورة تحاول أن تعلّم صغيرها التّحليق في الفضاء، يفشل مرة وينجح مرة، تنظر إليه وكأنها تحدثه:

- لا بد أن تتعلم.

يسقط على الأرض، يحاول الأطفال أخذه ولكنه كان يقاوم بشدّة، وهى تنظر إليه محاولة مساعدته بعيون خائفة.. مذعورة.. مما قد يحدث له.

تطلق زقزقتها بقوة، ينظر نحوها، ثم يحلّق مجدّدًا في الفضاء.

يقف معها على البناية العالية، وما إن تمضى لحظات حتى تسقط بطلقة من بندقية.

تتهاوى على الأرض، ينظر إليها وليدها الصغير متأملًا، ومتألمًا

تركها الصّيّاد وراح يصوّب ببندقيته نحو صيد آخر، فكانت الحمامة البيضاء.

في اليوم التالي سقط "صابر" من على السقالة الخشبية كما سقطت العصفورة والحمامة البيضاء، وقع على الأرض مضرجًا بدمائه وأوهامه.

❊ ❊ ❊

رصيف

في كل ليلة يختار الرصيف الذي سينام عليه.

أحسّ بالاشتياق إلى مذاق اللحم الذي حرمه الفقر منه.

هرولت قدماه إلى محل الجزارة.

أمامه امتد رصيف كبير مشبع برائحة اللحم.

أحضر كرتونة كبيرة، ورش الرصيف بماء من المبرد، ثم أشعل سيجارته، وأخذ يقرأ ما تيسّر له من كلمات العشق والحب.

دلف من بين سطور الكلمات، وهام في فضاءات الأحلام.

بحث عن حب بقي حتى الساعة رهين محبسي الفقر والخوف.

هذا الخوف من مجرد التفكير بالتعلق بفتاة يمكنها أن تشعل جذوة العشق والحب داخله.

على هذا الرصيف الذي تقاسم مع الكآبة عملية امتصاصه، كان ينظر كالعادة إلى كل عابرة تمر أمامه؛ يتفحص جسدها، لكنه يحرق صورتها في عينيه بمجرد أن تختفي، ويبدأ في التقاط صورة جديدة لعابرة أخرى.

كان يكتفي بمتابعة العابرات مِن دون أن تتحرك شهوته أو يسيل لعابه؛ ربما لأنه كان دائمًا مشغولاً بالهرولة خلف لقمة العيش منذ نعومة أظفاره، فوضع قلبه في تابوت.

غطّ في نوم عميق، وتحوّل الرصيف إلى فراش من حرير على قارب يعبر نهر السعادة، تسمع أذناه أنشودة عذبة، وخرير ماء؛ مع كلمات حب جعلته يقفز فرحًا، ويرمي بجسده في النهر.

أفاق على ضربة قوية على عنقه من شرطي.

راح يجمع أشلاءه المبعثرة، وهو يستجدي العساكر ليتركوه.

سحب من تحت وسادته قلمًا مشبعًا بالهموم، وورقة بيضاء في انتظار أن يحملها كل همومه، ويكتب فيها كذلك تلك اللحظات الحالمة التي شعر بها منذ دقائق. اخترق صوت الشيخ عبد الجليل هذا الهدوء.

كان يصرخ:- أنا المهدي المنتظر.

هرولت خلف الشيخ فتاة جميلة ترتدي ملابس النوم، يصل شعرها إلى منتصف ظهرها، عيناها عسليتان، ووجهها يكاد يلمع في الظلام. أمسك بالشيخ عبد الجليل وهدَّأ من روعه، وأشعل له سيجارة، دخّنها حتى غلب عليه النوم، وانتابته رعشة حين لمست يد ابنة الشيخ كفه. حمل الشيخ عبد الجليل على ظهره، وأعاده إلى بيته، وكلمات الإعجاب من بنت الشيخ تحفه، وحين وضعت

يـدها الرقيقـة على عنقـه التي داسـها العسكـري بحذائـه، شـعر بسعادة لم يعرفها مِن قبل.

كلما انتصف الليل خرج الشيخ عبد الجليل للصراخ، كأنه يرتب لموعد غرام بين ذاك المتوسد الرصيف وابنته. في ليلة انقطع التيار الكهربائي، انتظرها أن تأتي. انتظر صوت الشيخ عبد الجليل طويلاً حتى مضت سبع ليالٍ. وأخيرًا خرج الشيخ، لكنها لم تخرج خلفه.

حمل الشيخ، وذهب به، وأخذ يطرق الباب، فإذا برجل يخرج عليه بملابسـه الداخليـة، زاعقًـا في الشـيخ:- خـلاص، كفايـة فضـايح، واعمل حساب إني جوز بنتك.

أحسّ أن الخرس عقد لسانه. عاد إلى الرصيف، محاولاً استئناف النوم، ولكن من دون جدوى.

* * *

علبة سجائر ممتلئة

أشعلتْ سيجارتَها في السوق، ومضت تشق الزحام، وكأن طريقًا قد رُصِف لها خصيصًا ولكِن بلا أضواء، تَلمع سيجارتُها في هذا الطريق، ثم تحترق دون أن يصل طعمُها إلى فمِها، الرجالُ والنساء يضربون كفًا بكف غير مصدقين بأن امرأةً جنوبية تدخن في السوق بلا خجل.. وهي أصمّتْ أذُنَيها وكأنها لا تبالي مَا الذي قد يخرج مِن أفواههم التي تعمل ليلا ونهارًا ولا تَكف عن الثرثرة!

لم تعتقد أن هذا الأمر سيحدث يومًا ما..

لكنه حدثَ وبصورة فجائية تمامًا، حين اكتشفتْ بأنه لم يكن لديها رد فِعلٍ مناسِب لفعلٍ حدثَ أمامها وبسرعة البرق أيضًا.

عندما انهارت أمام تلك الأمواج المتلاطمة من الأحزان والوحدة القاسية.

شعرتْ أن غُصةً كالحجر تخترق حلقَها، وكان هذا أقصى رد فعلٍ، وكأنها ترجُم نفسَها.

في كل الأحوال وقعَ في نفسها أن الإنسان لا بدّ أن يجلس بهدوء أحيانًا، وفي أوقات الفراغ؛ لكي يرتّب ردود أفعالِه، تلك التي يعتقد أنه سيكون لها أفعالٌ مناسبة في المستقبل، وعليه أن يكون متفائلاً وصبورًا حيالَ هذا الأمر، ولكن مَن سينصِت؟

فالبيتُ خالٍ مِن رائحة السعادة، وأيضًا صراخ ولعب الأطفال لدرجة أنها امتلأت بردود أفعالِها فشغَلَتها واستقطعت حيزًا هائلاً مِن ذاكرتها وتفكيرها. أصبحتْ كتلةً مِن الهواجس المتحركة، ممتلئة بالتمتمة والهمهمة المترَعة بالحروف التي تلْفتُ أسماعَ الآخرين.

ماذا لو اتهَموني بأنني مجنونة..؟

لم أفعل شيئًا!! ولم يحدث شيء، لم يأتِ شيء، ولم يذهب شيء.

أحيانًا يحدث هذا، وأحيانًا تَكتنفني غرائبية في ردود أفعالي، بحيث يجرّدها الآخرون مِن هذه الصنعة العظيمة، فيعتبرونها أفعالاً مستقِلة عن أن تكون ردودَ أفعال، مما يُدخِلني في دوامة وفي حرج، كما أنه يُحبِطني إلى أبعد حد.

استغرَقها التفكير طويلا حتى اصطدمت به، مُكوَّمًا على الرصيف أمامَها، وقد دَفن رأسَه بين رِجلَيه.. كلما مرَّ عليه أحد يَستنجِده قائلا: "ضاعت مِني النقود.. إذا لم آتِ لأبي بالخبز سيضربني".. تَنهمِر دموعه.

الجميع يهمهِمون:

- "ده شغل شحاته"!

ينصرف الجميع، وهو ما يزال يكرر حكايتَه. أقبلتْ عليه..

أطلقتْ تنهيدةً اجترّت معها ذكرى ماضٍ أليم؛

طفلي الوحيد الذي أصيب بداء السرطان ومات في حضني بنفس عمرِ الصبي صاحبِ تلك البشرة السمراء، صاحبة الشعر المجعد..

بكاؤه حينما يكسر أكوابَ الشاي الزجاجية ويأتي ذليلاً منكسِرًا حتى لا أعاقِبه، أحضنُه وأمسح دموعَه الرقيقة، آخذُه إلى الحمَّام وأنا سعيدة مسرورة. أرشُّ على جسده الماءَ الدافئ.. وأدعكه بالصابون. يبكي مِن الرغوة الحارقة.. أغنّي له.. أداعبه.. لم أهتم يومًا بزوجي.. حضورُه كغيابِه، العلاقةُ بيننا شهوةُ سرير.. وعندما تنتهي يدير كل منهما ظهرَه للآخر! حياةُ زوجي مليئة بالأرقام والحسابات ١+١= ٢ ولا يجوز أن نخطئ أبدًا مهما كان، فالصفْر عندما يَسقط سهوًا.. تترتب عليه أخطارٌ جسيمة، رحلَ إلى الخارج منذ أعوام لجمع الأصفار.. حتى عندما أرسلتُ له أن.. "ابنك مريض بداء السرطان" لم يأتِ، ولكنه أرسل بعض النقود واعتذرَ بحجة عملِه، وجاء فقط لدفنِه! ثم رجعَ إلى نقطة تجميع المال؛ فهو لا يتمنى أن تتكرر سيرتُه الأولى مِن الوجع والفقر والحرمان..

هو متأكد أنه بالمال سوف يَشعر بالسعادة.. وسوف يتزوج مِن أكثر مِن امرأة، وسوف ينجِب حتى لو طفل أنابيب.

أطفَأ الهواءُ البارد السيجارةَ، فراحت تشعِل سيجارةً أخرى، اندفعتْ إلى تلك الدائرة التي كوّنها المارة على الصبي وأخذت تبعِدهم عنه. دَفعت إلى الصبي المالَ الذي فقَدَه.. اشترت له الخبزَ وهرولَ سعيدًا مسرورًا وشاكرًا.

مجرد أوراق مَسحت دموعَ الصبي..

"ما أتفَه تلك الأوراقَ، وما أعظمَها!" يَنذرون أعمارَهم مِن أجلها، ومجرد عود ثقابٍ يمكن أن يحرقَها، ولكن لن تقدر أن تعيد لأذُني بكاءَ طفلي.. ولا أن أعود وأرى ضحكاتِه تنير حياتي المظلمة..

مضتْ ممسِكةً بالسيجارة تجوب السوق.. طفلة تبكي لنفس السبب.. امرأة مكوّمة على الأرض تحتضن طفلا حديثَ الولادة.. ومعها شهادة بأن الطفل لديه ثقبٌ في القلب، أطفالٌ ينامون على الرصيف بملابسَ متسخة.

رفضت الدموعُ أن تتساقط مِن عينيها، راحت تسبُّ وتَلعن تلك الحياةَ الطويلة والشاقة..

ألقت بجسدها المتعَب على السرير تداعِب تلك اللوحةَ التي رسمتها لابنِها وكأنه يكبر أمامَها لحظةً بلحظة، رَمت عليها الغطاءَ حتى يشعر بالدفء..

تناولت الأقراصَ المهدئة، وجدت حقيبتَها قد فرغت مِن المال، ولكن ما تزال علبة سجائرها ممتلئة.

"يا لَه مِن شعورٍ ينتابني، وكأنني لم أكن هناك يومًا"

❊ ❊ ❊

حلم مؤجل

في نافذتي المطلة على المقابر، يتهادى إليّ صدى صوت غريب يتردد على أذني بين الحين والآخر، و صرخات مبهمة تتصارع داخلي، تعلو تارة وتخبو تارة أخرى..

أدخل كشبح إلى حجرتي الكئيبة، يسري النور منها خافتا خاملاً خيوطه، يتعرج من برد الشتاء الذي تسلل من تحت عقب الباب، ليسكن ويرقص تحت غطاء الليل، في مشهد سريالي ملك إحساسي.

هوت ساعات الليل على رأسي كقطع الفولاذ، وأنا جالس على فراشي مهشمًا، أبحث عن الحياة بين أوراقي القديمة، أقلبها، أحرق تلك، وأخرى أمزقها.

كل صفحة بين ثناياها تَذوب حياتي كالشمع المنصهر!!

أنظر بخجل إلى صورة والدي التي تخفي الندوب من خلفها، توقظ بداخلي نواقيس الذنب ومساوئ النكران، وكأنها تخفى هواجسي وخوفي مما يحدث أو قد يحدث.

أنزلها من على الحائط حتى أنظفها من خيوط العنكبوت المتشعبة، الذي نصب بيته باطمئنان غير آبه، أطيل النظر في هذا الرجل العظيم، بمعطفه الأسود، ونظارته السميكة،

وفي يده اليمنى عصاه التي نخاف منها - لا تضرب أبدًا ـــ وأتذكر كلماته الصباحية وهي ترن داخل أذني حين يقول بصوت عال:

- صباح الخير يا أولاد أحمس !

- يا أولاد صلاح الدين.

- يا أولاد من قال "لا " في زمن الظلم والطغيان.

عبد الناصر مدرس التاريخ صوته كان يهز مدينة عروس الدنيا، يمضى بين عشرات الحارات المتداخلة، وهو يشرح للجميع دون تعب أو يأس ونحن نتابعه.

اختفى عبد الناصر مدرس التاريخ، ربما الآن يسكن قبرًا قريبًا مني، ولكن روحه مازالت تحلق في فضاء روحي وذكرياتي، سيظل ما زرعه بعقولنا نرويه حتى يحين الحصاد.

ومن أقواله الشهيرة لنا: "التاريخ يكتبه المنتصرون، والمنتصرون يكذبون، بل يكذبون أكثر من اللازم لأنهم يُخفون كل فظائعهم أو يلصقونها بالمنهزمين، والمنهزم ميت، والميت لا يدافع على نفسه". ولكن هناك نماذج عديدة ملهمة لأبطال مقهورين استشهدوا دفاعا عن مبادئ نبيلة، فخلدهم التاريخ أكثر من قاهريهم، بالمقابل، هناك منتصرون كثر زوروا التاريخ، ولو إلى حين. ولكنهم وجدوا من يمجدهم ويثني على أفعالهم!!

أترقب كل يوم حياة مليئة بالعقبات، لا تخلو من الحسرة على الهفوات، أتأسف على سنوات مرّت دون تعلم ولا قراءة، لأنتظر الآن مكافأة قروش صدئ وجهها، لا تصلح لمواجهة أيام الغلاء، بينما من يتراقص بالكرة يقبض ما يجعله سعيدًا طوال حياته.

أسمع صوت أصدقائي يخترق صمت حديثي، فنخرج حتى نقتل تلك الأيام بسلاح النسيان. على كراسي المقهى الفقيرة التي تضم الدهماء وضعفاء القوم، من هناك، سوف نكتب التاريخ عن الحياة البائسة!!

نجلس نحن الثلاثة، أمام طاولة الدومينو نتسلى على إيقاعها (دش.. دبش.. دوبارة)، نخط على أثارها الزمن المر. يُخرج "عبد العظيم" النرجيلة ويُلقي بورقة الدومنيو بصوت عال، أبى قال لي:

- "دش كفاية ست سنوات من التعليم، المهم تعرف تفك الخط، التعليم في الراس وليس في الكراس. يكفيك يا محمود أثني عشر سنة من التعليم، المهم أن تدخل الجيش، توفر على نفسك سنة، ويصحبوا اثنتين بدلا من ثلاثة". توالى الحديث والنصائح هنا نطق صديقي:

- أنا مدرس التاريخ أرمي آخر ورقة في الدومينو، هكذا حياتي بيضاء.

ثم يأتي كالعادة درويش – المبخراتي - قائلا:

- الحل هو الحلم، "إياك يا نائم تصحا من الحلم" كي لا تغرق في الهم.

شرد ذهني وسط الضوضاء،اجتمع كثير من الشباب في المقهى، ينتظرون مباراة كرة القدم تجمع بين الأهلي و الزمالك، أثار انتباهي رجل كبير، يلبس نظارة سميكة، يرتدي معطفا سميكًا لونه أسود، يمسك جريدة صفراء قديمة، بعد لحظات من بداية المقابلة، تحدث مشاجرة قوية، يسقط الرجل المسكين تقع منه الجريدة، يختنق وسط ركام الازدحام، اختفى تمامًا على الأنظار، بمشقة الأنفس نسمع مرارة استنجاده، كغريق في يمّ شاسع.

بعد تعب البحث عنه، التقطت الجريدة الملقاة، ثم بدأت أتصفح عن المجهول. بحزن شديد، ذهبت إلى البيت والغصة في قلبي، داخل حجرتي المظلمة، على ضوء شعلة عود الثقاب، قمت بالبحث عن المفتاح، ولكن لا أدري لماذا تحولت عيني بلا إرادة مني إلى الشبح الذي ارتدى السواد، هل هو شبح أبي؟

ربما هو شبح الرجل الذي سقط في المقهى واختفى!

طاف الخيال حتى احترق عود الثقاب للنهاية، ولفحت النار أصبعي، حينذاك عدت إلى وعيي دفعة واحدة. أضأت المصباح متعجلا، تمددت على فراشي أقرأ الجريدة، وإذا بداخلها الكتاب الذي كان يحمله والدي، لا يقرؤه غيره!

مجموعة من الحقائق المفقودة والتاريخ الموثق، "كأحمس طرد الهكسوس الغزاة، صلاح الدين بطل حطين، قطز وعظماء صنعوا المجد ورفعوا شعار الحرية".

أحاديثهم مكتوبة بقلم أحمر، بعد دقائق سُمع طرْق الباب، الشبح يكشف القناع عنه وعن الآخرين، يقول:

- هذا أحمس، هذا صلاح الدين.

يتكلمان في نفس واحد:

- ماذا فعل اليهود بأرض الزيتون؟

- هل رجع الهكسوس ومعهم السوس ..؟!

يختفيان عن النظر، لم يبق سوى – مدرس التاريخ - بعد ساعات مضت، نظرت إلى المدرس الذي يشبه والدي، هو الشبح يفتح المذياع! نشرة الأخبار تذيع بيانا.. أن رجلين شنا هجوما قويًا على أماكن القوة الغاشمة، قصفا مواقع عدة..

ضرب وإبادة فى وجه الأطفال والعجائز والناس العُزَّل، سلاحهما سيف وقوس ودرع.. يضحك المدرس متهكما، ويختفي من أمامي!

حينها أجد نفسي على مفترق الطرق، بين ماض يحمل في طياته كمًا وفيرًا من الأخطاء، وواقع مرير يبدد كل التطلعات، وبين خوف من مستقبل مجهول ليس له أي أساس معلوم.

يختفي الظلام، ليدخل نور الشمس حجرتي، لكن! غاب شعاع الأمل داخلي، ربما أضغاث أحلام.

مر درويش بالقرب من النافذة يردد:

- "يا نائم عليك بالحلم، فهو الأمل، لا تستيقظ وتغرق في الهم، لا داعي للألم"..

وما زالت رائحة المقابر تملأ أنفي.....

❊ ❊ ❊

صخب الأحلام

يسودهم إحساس بالقلق، صمت مطبق يسيطر على شفاههم، وكأنهم بانتظار شيء ما!!

ربما يعرفونه أو لا يعرفونه، لكن منظرهم كان يشي بأنهم يتوقعون حدثا لا يرغبونه، فيما يوحي مشهدهم بأنهم لا يريدون وقوعه أبدًا..!!

نافذة تخترقها أشعة الشمس فتحرق بعض خيوط الأمل الرمادية للزوجة التي تفكر دائما في طلاق محتمل، وعن مستقبل مجهول؟!

منزل متواضع مكون من سقف واهن، وحوائط اخترقها السوس والفئران، ومازالت الزوجة تتمنى أن يهبها الله طفلا حتى ولو كان عبيطا، المهم أن تحمل في أحشائها ذكرًا، بينما زوجها جالس على المقهى كعادته ينفث مع دخان أرجيلته حزنه الدفين، ويرسم بتلك الخيوط الدخانية صورًا متعددة لوليده المنتظر، عيونه الصغيرة، ووجهه المستدير كالبدر، ربما حظي بغمازتين في خديه مثل أمه، تسمرت عينيه على النافذة، في انتظار البشارة، آملا أن يتحسن حظه، تسع سنوات لا يسمع فيها إلا مبروك يا "أبو البنات".

"درويش المبخراتي" ما زال يجتهد ويمده بالوصفات ويطمئنه.

- هذه المرة ولد!!

- نعم بالتأكيد سيكون ولدًا.

"مدد يا أم العواجز" واختفى (الهاتف المبشر) في لحظة من أمامه، وترك أبا السعد يذوب مع دخان – النرجيلة – وهو يردد داخله:

- آه لو كان كلام الهاتف "الدرويش" في هذه المرة صحيحًا.

تقبل عليه (أم زكي: القابلة) تزف إليه البشارة:

- ولد.. ولد.. يا أبا السعد.

لم يتحمل قلبه الخبر، فوقع في المقهى، وفي لحظة واحدة امتزجت فيها الأحزان والأفراح في عينيه اللتين كانتا تتمنيان أن تنظرا إليه.

مسح سعيد لقب أبيه من – يا أبا البنات – إلى يا "أبا سعيد".

شارع واحد بين المدينة وحارتنا، جسر يفصل بين النور والظلام. أعبر على الجسر بمفردي بين المقابر وأضواء الحياة، ومياه المجاري المتدفقة.. والباعة الجائلون يقطعون بحناجرهم صمت المكان:

- يا طماطم يا مجنونة!

عبارات يطلقونها على أصناف الخضراوات.

كما تنتشر عربات البوتاجاز، عربات الخبز، أصوات نهيق الحمير في كل مكان، صراخ الأطفال يلعبون مختلف اللعب، كرة، عسكر وحرامي..

ينتهي النهار بضجيجه، وفي آخر الليل، تأتى عربات البوليس، ترعبني بأصواتها المفاجئة، أتساءل في دهشة:- ماذا يحدث؟ وما الذي جاء بكم الآن؟

لا أحد يجيبني!

بعد تخمين، استنتجت أنهم "قبضوا على _ عبده الحرامي _ كالعادة!!"

تشرق الشمس من جديد، أحتسي قهوتي، وأحاول التأقلم مع هذا الروتين، أفتح الراديو على أخبار الصباح المملة كالعادة..

"ارتفاع سعر الدولار، نقص الدواء، الحرب على الإرهاب، احتراق قطار الصعيد، نادي الزمالك يهزم النادي الأهلي للمرة الأولى، إلخ ...." إلى هنا ينتهي موجز الأنباء..

وكان الخبر الأجمل هو:

- طرح فرص للعمل لمليون شاب.

أرتدي ملابسي، أهتم بشعري. ألمع حذائي الوحيد الذي يئن من آلام المشوار، وأخرج وأنا أحمل كتبا كثيرة على ظهري..

ألقب بالأستاذ/ سعيد أبا السعد.

- أين تذهب هذا المساء؟؟.

سؤال يسأله دائما حذائي.

لا أدري.

- أنا وحيد.

يجاوبني: "أنت الذي اخترت أن تنزوي بعيدًا عن البشر".

حتى مسكنك في آخر الجبل يطل على المقابر، على الجانب الآخر، الحياة ومباهجها، تعمل في صمت، تبكي، تفرح في صمت، لا أحد يشعر بوجودك سواي.

أنا من يحمل أحزانك. تعبت منك يا سيدي، أصابني الروماتيزم، لم أعد أحتمل أكثر

أرجوك..! اتركني واشترِ لك خادمًا آخر.

وقفت برهة صامتا، حتى انتهى من كلامه، شكرته على تحمله لي طيلة السنوات الماضية.

قلت له بضحكة بلهاء: بقي على أول الشهر أيام قليلة، فهل تصبر؟

الساعة السابعة والنصف صباحًا، حان موعد الذهاب إلى العمل، غرفة لا تتجاوز عشرة أمتار، تحمل آلافا من الأوراق وأناسًا كثيرين، لا تتغير وجوههم.

يبدأ الحوار المعتاد اليومي:

"لقد سمعنا زيادة في الرواتب، هل وافقت الحكومة، على زيادة مرتبات المخاطبين بقانون الخدمة المدنية بعلاوة غلاء استثنائية

٧%، إضافة للعلاوة الدورية ونسبتها ٧%، بما يصل بالحد الأدنى لمجموع العلاوتين مائة وثلاثين جنيها".

يرد موظف آخر:

- "هذا أفضل من لا شيء، ابني أحمد في الثانوية العامة، يريد درسًا خصوصيًا في أكثر من مادة دراسية، والدرس في هذه الأيام يحتاج إلى توفير أموال كثيرة!".

ثم يدخل آخر في الحوار:

- "هل بلغكم ثمن كيلو اللحمة بكم الآن، إيه أيتها اللحمة لو تدخلين بيتي مرة واحدة في الشهر!"

يضحك الجميع ضحكات تصدر من قلوب حزينة !!

بعد الصمت المطبق، أخرج قلمي لأحل الكلمات المتقاطعة، بعدها أنظر إلى الأدراج المفتوحة، كأنها ألسنة من نار تطلب المزيد.

تمضي لحظات، ينقص عدد الموظفين. وبعد أربعة ساعات ألتفت يمينًا ويسارًا، لم يبق غيري، بعد يوم طويل من الملل، يحين وقت الانصراف.

في طريقي، فكرت أن أشتري اللحمة والخضار، سألني الجزار هل تعرف ثمنها يا عم سعيد ؟

حاولت أن أرد بلطف:

- نعم ولو مرة واحدة تدخل بيتي سوف أفرح بها.

ذهبت وحيدا كالعادة أشق طريقي من مدن النور إلى مدن الظلام، أتذكر المكتب، وما يحدث فيه مستأنسًا.

وها هي مياه المجاري حولي، شعرت بشبح يتعقبني، يقف بوقوفي ويسير بسيري، ألتفت بحذر وخوف، برهة، لمحت كلبًا ضخمًا، يسيل اللعاب من فمه، وهو ينبح بشدة.

تقاسمنا ما في الكيس من اللحم الذي اشتريته، ولكنه لم يرض بنصيبه، وطمع بالمزيد، أبان الكلب الجائع عن أنيابه، ألقيت الكيس بما فيه، وركضت خوفا منه..!!

أخيرًا! وصلت إلى البيت، بدأت أتنفس الصعداء، أعزي نفسي، وأواسيها بمرارة شديدة.

سألت نفسي:

- هل أنا أضعف من أن أفكر في مواجهة كلب جائع مخيف؟!

كان علي أن أفعل كذا.. وكذا..

ولكن! ما الفائدة من الحوار والأسئلة الآن؟ لقد ضاع كل شيء.

ويبدو أن هذه الأسئلة ظهرت مع ظهور نقاط ضعفي!!

بحثت عن عشاء، لم أجد شيئا سوى العيش الحاف، أخذت أبحث عن علبة السجائر، لأدخن آخر سيجارة في العلبة، البيت بارد خاوي يلتهمه الصمت.

لماذا لم أفكر في الزواج من قبل؟

ولماذا أنا هكذا على هامش رصيف الوحدة؟

ولكن!

كيف لي التفكير في الزواج وأنا لم أستطع أن أحمي ربع كيلو من اللحم!!

فتحت المذياع، ضربته حتى تكلم، ليتوقف بعد دقائق. حاولت تشغيله لكن فشلت.

تسلل النيكوتين إلى دمي، أحسست بلذة السيجارة، وها هو الزهر يسقط منها كسنوات عمري المحترقة، بلا جدوى انتهيت منها ومعها تنتهي آخر لحظات لشروق الشمس.

رميتها تحت قدمي، وما زال صوت الحذاء والمكتب في أذني، وما زالت صورة الكلب وصوت نباحه في مخيلتي، وما زالت آثار النيكوتين في دمي، والسيجارة تحت قدمي وصوت الدرويش يردد: مداااااد.....

* * *

يد خاوية

عاد عوض من إجازته الأسبوعية إلى عمله، جارًا خطوات ثقيلة، بقلب أشجته الهموم، جلس على الأريكة التي في الطرقة منتظرًا، إشارة جرس من المدير، أمسك بالورقة والقلم يحسب مفردات مرتَّبِه، بعد سماع موجات الغلاء المتدفقة.

جميع الطلبات والحاجيات سجلت على ورقة صغيرة، فردها، عدها ببطء، بدأ يحسب ثمنها، ثم بدأ يتلمس جيوبه، بعد دقائق، دق الجرس، طوى ورقته، توقف دماغه تمامًا كأن شيئا لم يكن، أسرع مهرولا إلى الموظف وقال له:

- مئة ألف جنيه، هذه مكافأة وحوافز الباشا، هو الآن موجود في المصيف مع عائلته، وهذا هو رقم حسابه، اذهب بتلك الأموال، انتبه وكن حذرًا، ضعْهَا في حسابه بسرعة ولا تتأخر.

أمسك الفراش عوض بالأموال، كأنه أمسك بجمرة نار مشتعلة، اشتمَّ رائحة النقود الكثيرة التي لم يرها من قبل، قبَّل يديه، ثم وضع النقود في مظروف أصفر وأحكمَ غلقَه، وضعه تحت قميصه، أعاد أقفال الأزرار مطمئنا أن لا أحد ممكن أن يشك فيه..

لكن بعد لحظات، انتابه الخوف والفزع وهو يمشي بحذر، يتلفت يَمنة ويَسرة، أحس بأن المسافة طويلةٌ جدًا بين محل عمله

والبنك، مع أن المسافة قريبةٌ جدًا لا تتعدى بضع خطوات، أخذ الحيطة والحذر من كل الناس حوله، وكأنهم فجأة تحولوا إلى لصوص.

عند وصوله إلى البنك، وجد زحامًا كبيرًا، وضجيجًا يصمّ الأذن، كل فردٍ يُخرِج من حقيبته أموالا أضعافَ ما يحمله.

تساءل هل هناك أحد يشبهه؟

لماذا لم أخلَق مثل هؤلاء البشر الأغنياء؟

فنحن نعرق كثيرًا ونشقى ولكن في النهاية نتقاضى نقودًا قليلة من ماكينة الشقاء والعذاب! والباشا موجود في المصيف ومرتّبه الشهري يوازي خمسين شهرًا من مرتّبي بخلاف الحوافز!

أعطاه فرد الأمن ورقة تحمل رقمه وعددَ المنتظِرين قبلَه، حوالي ثلاثين فردًا.

ولا يوجد سوى ثلاثة موظفين فقط، لخدمة هذا العدد الهائل من العملاء..

سأل الفرّاش الذي يعمل في البنك أين باقي الموظفين؟!

قال له:

- عقبال أمانتك موجودين في المصيف، يتناوبون الذهاب إلى المصيف خلال هذا الشهر فقط.

ألقى عوض بجسده المنهَك على الأريكة تحت المكيّف، وبدأ هواء المكيف تدريجيًا يخدّر جسمه المتعَب، زحفَ النوم ببطء إلى جفنيه، وقعَ في سباتٍ عميق، محتضنًا المظروف كانت الخزانة مفتوحة على مصراعيها، آلاف من الأوراق النقدية ذات اللونين الأحمر والأخضر التي أصبحت تبهر العقول والقلوب، جلستْ بجواره امرأة جميلة تفوح منها رائحة زكية، أخذت تتحسس شَعره بيدٍ ناعمة رقيقة، فتحت زر القميص العلوي، الثاني ثم توقفت عن ذلك..

قالت له بغنج:

- أنت تحمل ما يجعلك سعيدًا طوال عمرك، فهيّا بنا نسرق لحظات السعادة من الحياة.

مضى عوض وكأنه أسيرٌ في هواها، يرى ولا يصدق ماذا يحدث له، ذهبَ إلى قصر ألف ليلة وليلة، أمامَه كل ما تشتهيه الأنفس. أنواع من الطعام والشراب لا يعرفها، طنافس لا يجرؤ على الجلوس عليها، تنهد تاركا لخياله أن ينساب، يبحر في سماوات فيروزية.

ها هو عوض المعدم الفقير، ينحت حلمَه، ينسج بسرور ألوانًا من السعادة،على بساط مزركش بكل ألوان الجنة.

استيقظ على صوت النداء الإليكتروني الذي يذكر رقمَه، أشار له الموظف بغضب مستنكرًا تأخره عن القدوم للكوة المخصصة

للإيداع، اقترب واضعًا حمله الثقيل على الرخام الصقيل، ثم دفع النقود في الكوة المخصصة.

شعر بالراحة عند إزاحة الهمَّ من قلبه، وبعد أن سلّم الموظفَ النقود واستلم الإيصال.

عاد إلى محل عمله، ينتظر وقت انصرافه، وانتهاء عمله، وفي خلده الحلم الذي عاشه في لحظات، تمنى لو لم يستيقظ من سباته.

ذهب إلى بيته ووجد المنطقة كلها غارقة في ظلام دامس، كالعادة بسبب عطلٍ في محوّل الكهرباء، حاول أهالي الشارع الاتصال بالمكلفين لإصلاح الأعطال ولكن دون جدوى، كل الحي يعاني من التجاهل والإقصاء التام، بعد نضال وشجار! أخيرًا، ردّ عليهم موظف، وأخبرهم أنه بإذن الله في الصباح سوف يأتي فرد الأعطال للعمل في إصلاح المحوّل.

تنفس الجميع الصعداء، فثبتوا شموعهم الصغيرة على المناضد الصغيرة، بعدما أيقنوا أنهم سوف يبيتون ليلتَهم الأخيرة في الظلام، يتحدثون عن ذكريات قديمة، يبثون فيها الحياة بالمبالغة، لكن ساعات الليل تصر على المضي بطيئة.

الناسُ دائمًا يركبون السلّم للصعود إلى أعلى، أمّا عوض فيستخدم السلم في النزول لأسفل، درجات السلم التي أنهكها التآكل.

أشعل عود الثقاب حتى يرى مكان المفتاح، فتح الباب فوجد شمعة تضيء المكانَ، إذا بالزوجة تجلس بجوار الأطفال، أخذ يقارن بينها وبين التي جاءته في حُلمِه، وقد استيقظت من نومها على صوت المفاتيح، كوحشٍ مفترس منظره مرعب.

أحضرت الزوجة العشاءَ دون أن تنبس بكلمة، كان قطعةً من الخبز وبقايا من الجبن وضعتها على المائدة، وانصرفت تتفقد صغارها. من الحسرة! نادَى عليها بصوت مرتفع، ثم ردت عليه بصوت عال، دار حوار حاد بينهما، انتهى بخروجه من غرفة النوم، ليبيت في الصالة.

وما إن مضت ساعات حتى حلمَ مرة أخرى بأنه في رحلة سفر بعيدة، ومعه ثلاثة أشخاص لا يعرفهم، بعد تعبٍ، وجدوا كوخًا صغيرًا على مقربة منهم، فدخلوه.

ناموا جميعًا وقد أنهكهم المسير، أما عوض فأخرج من حقيبته كسرة خبز وبقايا من الجبن، وبغيظٍ حانق ألقى عشاءه.

وفي سكون وحلكة الليل، اقتحم وحشٌ ضخم الكوخ، أخذ يأكل الأشخاص الثلاثة واحدًا تلوَ الآخر.

هرول نحو البندقية المتهالكة بجواره، بخوفٍ شديد أحكم قبضتَه عليها، رغم الرهبةٍ والرعب، انطلقت الرصاصة مدوية، استقرت في صدر الوحش، بعد أن شكّ في مدى صلاحية البندقية الصدئة،

لكن خروج الطلقة كان ناجحًا، مميتًا، فسقط مضرجًا في دمائه، وقد تحجرت عيناه من الغضب الشديد ..

فجأة استيقظ الزوج على صوت زوجته وهي تهزه مطالِبة إياه بمصروف البيت، ضرب يده في جيبه، خرجت ذابلةً فارغة وقد غمره الحزن.

يا خسارة، الآن تذكر تلك البندقية، ليته احتفظ بها كغنيمة من حلمه كي ما يبيعها ويستر عريه البائس!!

* * *

روحٌ تسكن الجدار!

سقط جسد أبيه على فراش المرض عدة سنوات، أخذ الابن ينظر إليه بعينيه الواهنتين بحسرة وألم، يعجز أن يفعل شيئا لإنقاذه دون جدوى، بخنق وضعف الحيلة، جلس بجواره يترقبه وهو يحتضر.

لقد كان الأب واقعيًا إلى أقصى الحدود، لقد كان متفائلا دائمًا، يرى النور وسط الظلام، ويبادل الشر بالخير، ويواجه الطعنات بالتسامح والغفران.

ترك وصية لابنه، وقد وضعها تحت وسادته، هذه الرسالة التي سَلبت منه الراحة وألبسته الألم، وجعلته يذرف الدم بدل الدموع، ويشرب من ملوحة بحر شاسع لا حدود له، على جرح غائر ألمّ به بشدة. وهذا نص الوصية يقول فيها:

- حاول أن تمشي بجوار الحائط من أجل أن تعيش حياة سعيدة بلا منغصات أو مشاكل.

- لا تنظر إلى الخلف أو إلى السماء.

- يا ولدي حذار من السقوط في حفرة من حفر الحياة، سوف تصرخ ولن تجد من يسمعك.

- اجعل هدفك هو الحصول على لقمة عيشك فقط، وعندما تعود أغلق كل نوافذ بيتك ونم وأنت مطمئن.

هذه الحروف جعلت جسده يتشابك مع روح جسد والده، قبل أن يغيب عن الحياة. أحسست بعده، كالرجل الآلي الذي لا يتحرك إلا بتوجيهات مسبقة، توقفه أو تحركه يمينا أو يسارًا، إلى الأمام أو للخلف، لا يفرط في السعادة، ولا يغص في الحزن.

معادلة كيمائية رسمها له على حائط أيامه. لا يقدر على تغيير حروفها ولا رموزها، وإلا تحولت إلى قنبلة موقوتة، نجم عنها انفجار ضخم، يسقط على إثرها تاريخ حياتي وذاتي.

دفن جثة أبيه في مقابر الأموات، ليعود وحيدًا يرسم مقبرته المستقبلية، تمكنه من العيش بجسد محنط في تابوت لا يفرق فيها بين الليل و النهار.

يؤرّخ حياة سرمدية، لا يسمع فيها سوى صوت الشهيق والزفير، بعينين غائرتين تنظران تحت قدميه، لعله يعثر عن بذرة أمل.

بدموع غزيرة تروي الصحراء القاحلة، يتألم بصمت، يحمل ثقلا على ظهره، يمشي ببطء دون هدف، وفي ثنايا صدره جثة لا تفارقه، يسير بين الناس وقد اتكأ على العصا التي ورثها من أبيه،غير مبال حتى لإلقاء التحية.

بعضٌ منهم يصفونه بالجنون، ربما لمظهر ثيابه الرثة، أو لملامحه القاسية الخالية من الألفة، يراقب وجوه المارة، وقد رسم الفقر والحرمان أشكالاً على تضاريس وجوههم، فأصبحوا كالأشباح.

لم يعد له في الحياة سوى التمني، أن يملك ثروة، ويسقيه الصّبوح خيرًا، وأحيانا أخرى حين يشعل المصباح، تراه يحلم أن يصير مجذوبًا.

أحلامُ متناقضة بداخله، تولد وتموت. يزداد الوضع سوءًا حين يرى الأطفال في الشوارع، يتفننون في كسر لمبات الإنارة، ثم يتملكه الهلع والفزع، حين يجد نفسه فريسة أمام مجموعة من الكلاب الجائعة، يحاول الهروب منهم بمشقة، إلى أين لا يعرف؟

بالذعر ينحني كي يلتقط بعض الحجارة دفاعا عن نفسه، فتفر كالجبان في ساحة المعركة، أتساءل مع نفسي "كيف لهذه الكلاب المفترسة أن تخاف من الحجارة الصماء ولا تهابني"؟

رغم الليل البهيم، عرفت قدماه الطريق، وصل إلى بيته في أمان، فبيته فوق السطوح، وقف أمامه عقرب يمنعه من الدخول، تردد كثيراً قبل أن يخطو إليه، تحركت قدماه للقضاء عليه، إلا أن العقرب كان يأمل الخير فيه، فقد ظل متسمرًا في مكانه كخشبة جامدة، منظر يوحي رجاءه في المبيت، إلا أنه كان جثة هامدة.

رائحة البيت عَطِنَة، لمبة كيروسين قديمة بلا وقود، وسرير أصابه العطب، في الزاوية الأخرى منضدة عليها كتب وأوراق، نافذة

موصدة، والعناكب رسمت في إحدى الزوايا لوحة سريالية، جحور استوطنتها الحشرات والنمل.

وفي منتصف الجدار صورة والده، اقترب إليها متمعنا وقد أعد لوالده كشف حساب بما يجرى له يوميًا:

"لقد ركبت الحافلة صباحًا، رأيت لصًا يسرق رجلا، لم أتكلم والتزمت الصمت يا أبي، لم أتحدث مع الموظفين وأشاركهم أحوالهم. ثم رأيت امرأة عجوزًا صدمتها عربة مسرعة لم أتأثر!

رأيت شبابًا يغتصبون فتاة لم أتكلم، أسرعت بالهروب مع أنها استغاثت بي، انسحبت من الحياة ومن صخبها، وعُدت إليك ثانية"..

راح بجسده المنهك على السرير يلتمس الراحة والهدوء، وقد أعدَّ فنجان القهوة، أشعل لفافة التبغ وسرح مع خيط أحلامه.

انقطع التيار الكهربائي عن المنطقة، فسمع جارته تطرق الباب لأول مرة، إذا بها تسأله عن شمعة تضيء غرفتها، مقابل ذلك تحاول جذب أطراف الحديث معه:

- كيف تجلس في هذا الظلام الدامس.. ألا تخاف؟!

تلتفت إليه فجأة قائلة:

- تعال...

ينـتفض عـابرًا المسـافة القصـيرة، التي تفصـلهما، يرتمي بكليتـه صـوبها، إذ حـط عنـد مشـارفها تمـدد إعيـاؤه، وثقـل تنفسـه، حتى خرج منه ما يشبه الشخير، ولما كف، شرع في شهيق شره، بدا كأنه لن يكف، يجرع عبقها، عطرها الداخلي، تتسارع دقات قلبه.

تفـك أزراره الميتـة، تجـرده مـن كفـن المـوتى يقـارب تضاريسـها، ضحكاتها قصيرة، سريعة، حانية، يحوم حول مركزها، كأنه يخشى أن يبدأ فينتهي، وعندما اجتاز تخومها انخلع غير مصدق، وجرى بعضه في بعضه، يدس أنفه في إبطها، تحنو، تمرر أناملها فوق ظهره، يبدأ أمره في السريان من جديد، كأنها وعت ما هو عليه، امتصت زخمه.

بـدأت كشـعلة مـن نـارٍ ينبـوع لهـبٍ تتصـلب، ترتخي، تتقلـب في هجوعها، تمشي في ثباتها، يسلم قياده، تطرحه، تدغدغه.

وفجأة تتحرك روح أبيه الميتة داخل جسده، قائلة:

ـ لا تفعل هذا..

انشـطرت الحجـرة إلى نصـفين، نصـف أراد أن يعـيش تلك اللحظة هو وهي عاريين من ثوب الخوف والحرام.

ونصف يرتدي ثوب العفة، وآخر يلتف بالرذيلة، دفعها بقوة على الجدار، سقطت صورة أبيه.

راحت تصرخ، يرتد إليها الصوت على وجهها.

خرج تاركًا المرأة تصرخ، وتعض بأسنانها مرتبة السرير العطب.

العقرب ثابت في مكانه، وقد التهم النمل بعضًا من أجزائه.

وضج الزقاق بنباح الكلاب، لقد أتوا من جديد منهمكين في اصطياد كلبة، يحاول كل منهم أن يأخذ نصيبه من تلك الفريسة، بعد صبر طويل، اختارت الكلبة واحدًا منهم، وثب الكلب خلفها، أما الباقون، فراحوا يهزون أذيالهم منكسين رؤوسهم، قارب الكلبان أن ينتشيا. فقاطعهما الأطفال بالحجارة، وانصرفا.

بعد ساعات من الوقت، عادت تلك المرأة التي تركها وخرج. رمقها تقفز على رجل جديد، يرتدى السواد، يتسلق مواسير المجاري، باستغراب حدث نفسه:

-هل سأتكلم وأصرخ، وأقول حرامًا أم ألتزم الصمت؟

مرّ زمن من الوقت، وهو ما زال يفكر ماذا يفعل، رآه ثانية في رحلة العودة حاملاً ما سرقه، كلب ينبح بقوة معترضًا طريق اللص، عراك ينتهي بإصابة بالغة للكلب. استيقظ الناس على صوت نباحه يهرولون ناحية اللص تاركين المسكين يحتضر.. اقترب من الكلب وهو يحدثه مشفقا على ما قد حدث له:

- لماذا لم تلتزم الصمت، وتمارس حياتك العادية؟

أما الآن فسوف ترحل، قد أوديت بحياتك لتحمي أناسًا لا تعرفك.

. هل أنت نادم الآن؟

ـ هل ذقت مرارة الاختيار؟

ـ هل فرقت بين الحياة والموت؟

وداعًا أيها الكلب.

عاد من جديد للالتصاق بالجدران المتآكلة وقد بلغ التشقق مداه، ليفاجأ بطفل صغير يخرج بين دفتيه، ويهرول خلف كلبة أخرى بيضاء تنبح، بينما الصبي يقهقه من الضحك.

❊ ❊ ❊

جنون لذيذ ومشتعل

"لا يوجد عندنا وظائف خالية"

بعد سماعي لهذه العبارة المعتادة، تحسست جيبي، فاصطدمت أطراف أصابعي ببعض النقود التي مدها إليّ أبي وهو يربت على كتفي، بينما أمي تحمل في يدها المبخرة، وكلما دعت، تزايد صعود الأبخرة التي غمرتنا جميعًا!!

على أحد الأرصفة أجلس لتناول شطيرتي فول وطعميّة، أعدتهما لي أمي ووضعتهما في كيس بلاستيك، وعن يساري بعض كراسي مقهى، يستعد رواده لمناسبة رياضية.. منهم من يتحدث عن الغلاء الفاحش وما آل إليه حالنا، وهناك من يحلم بالسفر إلى الخارج أو يكون مثل لاعبي الكرة!!

صوبت نظري إلى التلفاز، وقد بدأ الاستعداد للمباراة، امتلأ المكان، حتى أنني لم أعد أجد بصيصًا إلا عندما يتحرك الجالس أمامي !!

بدأت الزبائن في طلب مشروباتها من شاي وشيشة.. بينما أكملت الشطيرتين.

تحركت بخطوات بطيئة عندما شعرت بالعطش، وقد تهادى إلى مسامعي، حديث البعض عن البطالة ووقف الحال، تمنيت مشاركتهم الحديث،

تحسست جيبي وقررت أن أشرب، وأعود إلى حيث مكاني، لم تنفعني دعوات أمي ولا بخورها، وقد بدأت أتألم من أثر السير بحثا عن مصدر للرزق.

سألت نفسي:

"ألست فردًا في هذا الوطن ولي الحق في عيشة كريمة أنا وأسرتي؟"

بحسرة التساؤلات، وصلني همس الصوت في خبر عاجل:

"شاب تونسي أشعل النار في جسده وسط الشارع احتجاجًا على تعنت حكومته"!

كان الجلوس متعاطفين مع الصورة، وأغلبهم أقر بأن الحكومات تتحمل جزءًا كبيرًا مما حدث، وأقسم صاحب المقهى الذي صرخ في الجميع بأن يلتزموا الصمت!، هنا للمشاهدة المباراة وشرب الشاي والشيشة فقط؟!، قام أحدهم وانصرف، وقد قررت أن أضحي بما في جيبي وأسمع حديثهم المتتبع للثورات الأخيرة التي حدثت في البلدان العربية، وما أعقبها من تغيرات كبيرة في الخارطة السياسية، لهذه البلدان سيجد أن من أهم الأسباب الرئيسية لحدوثها هي البطالة، وعدم حصول الشباب على فرص للعمل، لذا وجب على حكوماتنا أن تضع مكافحة البطالة في قمة هرم أهدافها واهتماماتها،

وتسارع بتهيئة وإيجاد الحلول الناجحة لتوفير فرص العمل، أمام مختلف شرائح المجتمع وخاصة الشباب منهم، والعمل على تحقيق الحصانة والحماية لشبابنا من الوقوع في براثن وحبائل الإرهاب،

وتدارك الأمر، بأسرع وقت ممكن، ونأمل من المسؤولين إدراك خطورة البطالة، ونتائجها الغير محمودة على شبابنا ومجتمعاتنا، وأن تسارع بالخطوات الصحيحة والسريعة، لتخليص البلاد من هذه الآفة الخطيرة التي بدأت تستفحل بشكل مخيف، وذلك بوضع استراتيجيات علمية جادة للقضاء على البطالة بشكل نهائي، ولحماية مجتمعاتنا من عواقبها الوخيمة.

بدأ الجميع يستمعون مثلي لمرشح دائرتهم، الأستاذ فهيم الذي ظل ينظر تجاهي وهو يتحدث منتظرا مني أن أجادله أو أتفق معه ولكنني لم أفعل!!

بينما أتابع الحديث في حوار لا ينتهي، أنظر إلى التلفاز مفزوعًا لرؤية جُثة إرهابي يشبه صديقي الشيخ خالد، الذي كان بالأمس شقيًا جدًا، وما زلت أذكر مغامرته التي كان دائمًا يحكي لي عنها، فأحلُم بما كان يفعله، وأصحو بحاجة للاغتسال استعدادًا للذهب مع أبي لصلاة الفجر.

فقد كان يمشي بجسد قوي ممشوق، وجلباب قصير يرتديه في الآونة الأخيرة، واللحية الطويلة التي غطّت وسامته،

ولكنني لم أجد عينيه اللتين بكتا أمامي بالأمس لموت قطة كانت تعبر الطريق، فعرفت أنه ليس القتيل.

لم يأتني من يطلب مني أن أشرب شيئا، فحمدت الله واستعددت للانصراف.

أذهب إلى البيت، وبدون كلام، يدرك أبي ماذا حدث لي أثناء النهار، فيجلس على المنضدة ليحسب مصروفات البيت وعلامات القهر على وجهه. أصعد حيث السطوح إلى منزل صديقي الشيخ خالد، أجده ساجدًا كالعادة، وأسمع صوت دعائه الخافت، فأشعر بقشعريرة تتملك جسدي. أجدني أقارن بين الشاب الشقي وهذا الشاب العابد.

انتهى خالد من صلاته، ودارت بيننا أحاديث طويلة، عن كافة القيم، والمبادئ، والأخلاق الحميدة، أتبعها بأن القابض على دينهِ كالقابضِ على الجمر، فطوبى للمؤمنين. أراد بكل صراحة أن يُبلغ هذا الكلام إلى الناس في الشارع ويخبرهم بالحلال والحرام، ولكن ردّي كان قاسيًا بلا سبب:

- أنت عامل فيها شيخ ونسيت نفسك يا خالد!

وكأن على الجميع أن يتذكر الحياة الأولى لرابعة العدوية، وينسى حياتها الثانية. تركته وعدت إلى البيت لأجد أبي ما زال يُقلّب كالعادة في مصروفات البيت.

دائمًا ما أحلم أن أضاجع زوجتي ليلة الخميس مثل المتزوجين، ولكنني أحس بعدها بالندم والخجل من نفسي.. لأنني لست متزوجًا.

تُشرق الشمس، فأرتدي جلبابي الأبيض، أرتديه فقط لصلاة الجمعة، وأثناء الصلاة، تتساقط دموعي بغزارة شديدة، أناجي الله وأنا ساجد:

- "أعرف أني مُقصّر، ولكنني أتمنى أن أعيش الحياة، وإن منحتني زوجة جميلة، ورزقًا وفيرًا، سوف أحج إلى بيتك، وأواظب على الصلاة والعبادة وأخرج الزكاة".

وجدت أنني أقف دائمًا على حافة حزني، وقلقي من اليوم والغد. أتمنى أن أعيش - ولو ليوم واحد - حياة خالد السابقة.. وكأنني أقف على جبل يتوسط الجنة والنار.. أتساءل:

- ماذا لو كنت من الأثرياء، هل ستنتابني نفس الحيرة، وذات القلق؟

بالنهاية أخرج من المسجد. ما زالت الحيرة تلف جسدي المتعب، أخلع الجلباب الأبيض، وأحفظه في دولاب وأقول له:

- أراك في الجمعة المقبلة إن شاءت الظروف.

وبالمساء أعتلي سطح المنزل، لأنظر عبر النافذة المفتوحة. أرى عريسًا جديدًا يُمارس حياته الزوجية، وأحلم أن أنصب الشباك لبنت الجيران، لتقع أخيرًا.

فار الدم بعروقي، ووصل إلى النخاع، ولأول مرة أُشعر بشيء غريب في حياتي، تنصرف البنت عائدة. أحتقر نفسي كثيرًا، وأدخن سيجارة..

يقول لي خالد: هل نسيت الله؟

وبلهجة لا أعرف معناها، اختلطت كل مشاعري. ربما تكون تلك هي لحظة اليأس، رددت:

- أتتكلم أنت يا صديقي، وأنت لا تعرف الحرمان. هل تتذكر ما كان بالأمس؟ حينما كنت تعيش على مسرح الحياة مستمتعاً بمالك الوفير، تغني، ترقص، تستمع بشبابك.. كانت قلوب النساء تتراقص معك يا صديقي.

لا أدري ما هو الشيء الذي قد دفعك للبعد عن هذا العالم؟ أتركني لا أحتاج لنصيحتك.

فجأة وجدته أختفي من أمامي. ربما كان مجرد حلم يقظة.

أضع يدي علي وجهي محاولاً أن أمسح تلك الدموع. جاء صمت ليغرق المكان.

بالنهاية أفقتُ على صوت الآذان، فتحركت نحو المسجد، ولكن تذكرت بأنه ليس يوم الجمعة.. لكني وجدت قدمي تترددان بمواجهة الطريق، عدت ألتحم بوحدتي في ظلمة تلك الحجرة ، أخرجت من أسفل وسادتي صورة تلك الحورية البيضاء الشهية الفاتنة فلم أتمالك نفسي وأنا أغرق في تقبيلها متخيلا إياها زوجتي، لحظات ثم ها أنا ثانية أغرق في عرقي ولزوجة خطيئة هذا الماء الذي أهدره ككل مرة في صحراء العبث وحسب! أحدق في لحظاتي البائسة وألعن غبائي، لكن هذا الشعور الرائع بالراحة رغم كل شيء جنون لذيذ ومشتعل يطيب لي الشواء في جحيمه!

* * *

لا تتركين جرحي يستريح

عند الغروب، يلتهم باطن الجبل نور الشمس، فتموت أمامي رويدًا رويدًا، كل شيء في الأرجاء يتسم بالنحول، الشارع يتسم بالذبول، بأرضية مبللة تخفي مساوئ الظلمة، كما لم تفعل أرض من قبل، وكل مساحة في القرية لها شكل الأطباق المرصوصة فوق بعضها البعض بعناية.

البيوت هناك منغمسة في جوف القرية، كقطعة بسكويت عائمة ألوانها فريدة فاقعة مبهجة، عندما تكون الشمس قد ولت تصبح مثل الأنوار التي تطفو على سطح بحر هائج، تختبئ مستحية، كأميرات يخبرن أسرارهن لخادماتهن العجائز.

أرمى بجثتي إلى الخلف لعلّي أغيب في الخيال، يمر في ذهني قطار الحياة يلتهم أمتار العمر، يسبقه في ضجة سكون الليل، والحزن كالعادة يخبز الليل ويتركه حتى يختمر مع أيام العمر.

قالوا إن العمر يجري إذا ما رأيت الشيب ظاهرًا وها هو الشيب، وما زال العمر راسبًا في أعماقي، ولم يتغير شيء سوى أني أتكئ على عصا بظهر منحنٍ.

تتساقط أوراق رمادية هشة من بين أصابعي الشاحبة، أتساءل بعمق:

- لماذا حياتي رتيبة؟

وأعود من جديد لامًا هامات الشموخ المنكسر ليستبد في الانطواء وأقول:

-«يجب أن أعيش حياتي بكل حرية.. أنطلق، أمتلك، أعيش العمر بلا خضوع.

كنت أبعثر سنوات عمري دون التقيد بقواعد المألوف ولا التزامات هذا الزمن الذي لا تعنيني، لقد تخطيت حدود الرؤيا، وغدا يلامس سني الجنون، صدئت حياتي، وانتهت بكل ما فيها، أنا صاحب دمعة وحيدة في الظلام، رحلت زهرة عمري منذ عشرين عامًا مضت، وهكذا اصطدمت بواقع الحياة ذات الوجه القبيح.

أتوكأ على عكازي، وأمشي أتلمس الطريق في العتمة مستعينا بمصباحي اليدوي العتيق. أقتفي أثر رشا.

بصمت رهيب يخيم على المكان كمقبرة يسكنها الموتى، وأسلك وسط القبور والحشائش والأشواك.

- كيف حالك حبيبتي؟

أنت قلقة مني ولا شك، لأنني لم أزرك ليلة البارحة.

لا!

لم أكن مريضًا ولم يصبني مكروه.. اطمئني.. البارحة استمتعت كثيرًا، وشربت كثيرًا، وتكلمت كثيرا، ودخنت كثيرا. وحلمت بأنك عروس ترتدي أحلى الثياب..

شروق الشمس يعلن عن حياة جديدة، الجو حارق، تبدو الشمس وكأنها رسول جهنم البعيدة..!! حظ قريتي من صفاء الطقس كحظها من جفاف الفقر؛ يبدوان معًا كخطي سكة حديدية تفصل بينهما مسافة ثابتة لا يفترقان ولا يلتقيان، ملعونة تلك القرية التي تكره البنات، لم أحزن على أحد قط كما حزنت على طفلتي الغالية.

أحيانًا الدموع لا تكفي لمسح الأحزان لقد ذهبت!! وذهبت معها الأيام الجميلة.. لم يبق سوى ذكرى أليمة.. مرارة الوداع.. أتذكر يوم مولدها.

كنت أتابع مباراة كأس العالم بين منتخبي مصر وهولندا.. أعجبت بكلمة قالها المعلق الرياضي:

"عدالة السماء" "عدالة السماء" ظلت هذه الكلمة تتردد في أذني.

انتهت أحداث المباراة، ذهبت إلى البيت فرحًا وصدري منشرح. وجدت زوجتي الحامل مثقلة الخطى قد تضع بين الحين والآخر.

عندما سمعت بأنها أنجبت بنتًا حزنت وانقلبت فرحتي رأسًا على عقب، أسود وجهي.

خرجت من البيت ألمح في عيون النسوة لمحة الشماتة والمعيرة بأني أنجبت بنتًا، فتزداد ثورتي، فإذا بجدي يمسك بي ويقول:

"اجلس هدئ من روعك".

قال: كل مولود وله رزقه.

استرحت على الأريكة، أخذت نفسًا عميقًا، أسلمت جفوني لسلطان النوم، غرقت في سبات عميق، حلمت بأن الدنيا مليئة بالغيوم، سرعان ما انقشعت، فظهرت نجمة رائعة في السماء أضاءت جنبات الأفق المترامي الأطر، بعد أن كانت تلفه الظلمة وتحول اليابس إلي جنة خضراء.

أشرق الصباح.. فإذا بساعي البريد يطرق الباب، حاملاً خطابًا لي.. فتحت الخطاب، قرأته في لهفة.

وجدت رد الشركة التي قدمت لها أوراقي منذ فترة، فقدت فيها كل الأمل للاستجابة.. فإذا بهذا الخطاب يزف لي بشرى تعييني في الشركة بعرض مجزٍ!! سبحانك يا الله.

ضحك جدي.. قال "كل مولود وله رزقه".

تمضى الأيام والشهور، السعادة أصبحت ترفرف على بيتنا السعيد.

في يوم من الأيام خرج جدي كعادته لصلاة الفجر، وعند عودته سقط قبل أن يصل إلى البيت، فوجد صعوبة في الرجوع.

استيقظت "رشا" من نومها مفزعة، تبحث عن جدها الذي لم تجده في مكانه المعهود.

فتحت الباب لمحته ملقيًا على الأرض مغشيًا عليه.. رجعت مسرعة إلى البيت لكي توقظ من في البيت.

بعد ساعات كان جدي في المستشفى.

قال لي الطبيب:

"الحمد لله إنكم جئتم به بسرعة، فالحالة لا تحتمل الانتظار، بعد ساعة سوف يفيق ويصبح على ما يرام إن شاء الله".

أخذت أبحث عن "رشا" فوجدتها نامت تحت السرير، حملتها في هدوء وسكينة حتى لا أوقظها.

نظرًا لذكائها الشديد وطيب كلامها.. كانت تنال قسطًا وافرًا من حب الأقارب والجيران، لا أحد يستطيع الاستغناء عنها، كنت أخاف عليها من الجيران ومن الشارع.

في يوم انتابني كابوس فظيع. إذ رأيت تلك الغيوم والنجمة البراقة قد أحرقت الأخضر واليابس.. اندلعت النيران بكل مكان.. كأنها قد أخذت الأمر بالحرق التام لكل ما يواجهها .

قمت من نومي فزعًا، لم التفت لهذا الكابوس السخيف. ذهبت إلى عملي. لم أنس قبل أن أغادر المنزل أن أقبل "رشا".

كانت قدماي تأبيان أن تتقدما لو قيد نملة، تتقدم خطوة وترجع خطوة.

قالت أم "رشا": "استعذ بالله من الشيطان الرجيم وتوكل على الله".

في العمل صادفت مشاكل عديدة انتهت بتقديم استقالتي.. كنت أريد أن أنفرد بنفسي فاليوم عيد ميلاد "رشا" وعدتها أن يكون عيد ميلادها من أجمل الأعياد.

جاءت "رشا" لكي تريني الفستان الذي أتى به جدها.

حاولت أن تداعبني بأناملها الصغيرة صرخت في وجهها.. ذهبت في حالة خوف مني. كان لي صديق يعمل في الشرطة فوضع مسدسه على الطاولة فخرجت منه وبدون سبب طلقة، إذا بالطلقة تخترق صدرها.. امتزجت دماؤها مع فستانها الأحمر.. صار سيخا محميًا بنار الفجيعة التي لا تغادرني مثل طيفك يا رشا أتوجع كلما رأيت طفلة بفستان أحمر، ما أقساك رشا!

ما بالك لا تتركين جرحي يستريح؟

قاسية أنت يا رشا. تركتني أصارع الحياة وفجيعتي بك تصطليني والذكريات الأليمة..

* * *

تمزق

تقف خلف نافذتها المغلقة، الدموع تنساب جداول على خديها، تسمع الباب يفتح بهدوء، يدلف زوجها إلى غرفة جهزها بيديه، يناغي أطفالا غير موجودين، يئن، يصرخ، يُسقط جسده على السرير وتنتثر من يده بعض سدريات وألعاب وتغرق الدموع وجهه.

ترتق أحاسيسها المجروحة بخيوط الصبر.. فكل يوم وليلة يتكرر نفس المشهد الأليم، تقبل عليه مواسية:

- تزوج يا محمود فأنت تملك المال والصحة، وأنا غير قادرة على الإنجاب..

تعرف أنني أحبك من كل قلبي، ورؤيتك تتعذب وأنت تنظر إلى أطفال الجيران بعين التمني يجعل قلبي يتمزق، حقك أن تسمع كلمة بابا، فأنا أرض بور لا تطرح ثمارًا.

يحتضنها، يربت على رأسها، تمسح دموعه وتواسي حزنه ويغطان في سبات عميق.

تشرق شمس صباح جديد..

تتسلل نعمة من البيت قاصدة منزل والدتها القريب. في الطريق كلما صادفت أمًا،

تغطي بسرعة طفلها بوشاحها الأسود حتى تمر خوفا عليه من نظرات المرأة العاقر وتتمتم بأدعية الرقية. ترى، تسمع ويعتصر قلبها حزن عميق تغلغل في كيانها ودواخلها..

لقد مضت عشر سنين، لم تُجدِ كل الوصفات والأدوية شيئا، الطبيب يؤكد دائمًا حدوث حمل لم يحصل، لكن اليأس تسلل إلى قلبها وأرهقتها الفحوصات والتحاليل وعلاجات دورية لا تنتهي..

يأس قادها للجوء إلى الدجل والشعوذة والخرافات أملة أن يتحقق حلمها المفقود.. رافقتها أمها على مضض.. جلست مع نسوة يفترشن الأرض.. والعرافة تتصدر المجلس تفترش جلد خروف.. من جيدها يتدلى الخرز بكل الألوان وعلى رأسها شال أخضر مربوط بوشاح أسود.. رائحة البخور تملأ المكان.. تضيف منه إلى النار مع كل همهمة ووشوشة رشة.. بين يديها طبق به بعض نواة البلح.. تأخذ منها ملء اليد.. تلقيها، تبعثرها، تجمعها.. تكرر.. وتعيد.. على وجه العجوز ارتسمت علامات حزن عميق.. نظرتها لها تقول أن لا أمل في أن يحدث ما تتمناه وتصبو إليه.. تخرج مستندة على كتف أمها ورجلاها لا تكادان تحملانها..

أقلبت عليهما امرأة ببطن منتفخة، كانت مثلها عاقر، قابلتها مرات عند الطبيب، سلمت وطفقت تواسيها وتؤكد أن الأمل دائمًا موجود وراحت تحكي لها كيف فعلت من أجل الحصول على طفل..

- اسمعي يا أختي، لقد جربت مثلك كل شيء حتى دلتني قابلة عجوز على وصفة الموتى التي تمنح الحياة فذهبت إلى المقابر برفقتها وقت القيلولة، وبمساعدة التربي، الذي أخرج لنا جثة طفل ذكر لم يمر على مواراته الأرض أسبوع.. تخطيتها كما قالت القابلة سبع مرات حتى سقطت على الأرض وأنا في غيبوبة تامة.. وبعد أن استفقت واستعدت وعيي، أخذت المرأة المباركة من تراب المقابر الطاهر وأخذت تنثر منه على جسدي وطلبت منى ألا أعاشر زوجي لمدة شهر. وأوصتني كلما هل شهر جديد في السماء، أن أقذف بعض الماء به ملح في وجه الهلال.. وها أنت ترين لقد حصل المنى والمبتغى..

الأم لم يرقها هذا الأمر.. فللموتى حرمة.. والمقابر مخيفة وخمنت أن في الأمر شيء مريب.. لكن المرأة المقهورة أصرت على أن تفعل مثلها.. وأمام دموعها المنهمرة لم تر بُدًا من الرضوخ لرغبتها.. وعندما انقطع عنها الطمث لم تسعها الأرض سعادة، طلبت منها أمها أن تكتم الخبر أربعين يومًا حتى تتأكد.

يستيقظ محمود على صوت الهاتف ويعرف أن زوجته قد ذهبت إلى أمها كما كل يوم جمعة لزيارة المقابر والترحم على والدها، يعد كوب شاي، يفتح التلفاز ويجد برنامجًا يتحدث عن موضوع الإنجاب، ينصت إليه بهدوء وتركيز شديدين، علماء يتحدثون عن أطفال الأنابيب بأسلوب مختلف.. تحميل الجينات بمواصفات

خاصة. لون الشعر والعيون وكذلك الذكاء والخلق كل ذلك يوضع في النطفة وبعد ذلك يتم معالجتها ووضعها في رحم الزوجة.

يستغفر الله من التدخل في صنع الله، يغلق التلفاز ويخرج إلى المقهى، يجلس مع صديقه وهو شارد الذهن، مشتت التفكير، مثقل بهموم تنوء الجبال بحملها، يغادر صديقه المنشغل عنه بجريدة وفكرة الزواج من ثانية تراوده وتلح عليه، لكن كيف يفرط بشريكة العمر وكيف سيعرض عليها الأمر، فحتى لو هي من اقترحته فسيبقى شاقا على نفسها ولا يودّ أن يكسر بخاطرها.

استيقظ محمود على صوت صراخ زوجته ذات ليلة وهي تتلوى من الألم.

أسرع بها إلى المستشفى، بعد الكشف طمأنه الطبيب أن الحالة بسيطة، مجرد مغص بالمعدة.. وأن الجنين لا خوف عليه.

على عتبة الباب جلس يرقب الصبي وهو يلعب بالكرة.. ويرد سلام كل من يدعوه بأبي سامر.. تحت بلاطة ما بالمنزل يرقد ملف تحاليل وفحوصات أجراها خفية حتى لا يظلم نعمة بزواج ثان.. تؤكد بشكل قاطع أنه من لا ينجب.

* * *

عربة كارّو

اختلطت الأصوات والوجوه، وتأرجحت الأجساد جيئة وذهابًا..

يعلو صوت لهاث الرجال الصاعدين في الجبل المظلم، وتنعكس خيالاتهم على أضواء خافتة لمشاعل نارية اللون، تداعب ذؤاباتها نسمات خفيفة في ليلة تلبدت بالغيوم، وتوارى قمرها خلف سحب هلامية، مرسلاً أشعته الفضية تتسلل مثل لص خفي عبر ثقوب صنعتها الغيوم المتشابكة، قبل أن تنكسر على الأجساد المنهكة.

الجميع يبحث عن (موسى) الذي انتهك عرض فتاة واختفى وكأنه شبح.

موسى شاب متعلم صاحب شهادة عالية، أراد أبوه أن يخرجه من دائرة سائقي (الكارو).. اخترق تلك الدائرة المفرغة والمليئة أيضًا بالخشية من رجال البلدية، وأخلاق السائقين المتردية، والخوف من التعب اليومي المنهك لرجل يحمل على كاهله أحمالاً ثقيلة.. استدان من هذا ومن ذاك، حتى بلغ به الحال بيع أثاث منزله.

حصل موسى على الشهادة، وخلال دراسته، أحب فتاة رافقته في التعليم وأيضا تسكن في منطقته، بادلته المشاعر والأحاسيس، وكتبوا ورقة تثبت بأنهما مرتبطان إلى الأبد .. أنستهما نشوة الفرحة بحبهما الوليد قاعدة القبيلة:

"يأكلها التمساح ولا يأخذها الفلاح"

لم يفكر موسى وحبيبته بالنهاية، لم يحاول أن يلمس جسدها، فقط أخذ قلبها، وشعرت بالسعادة معه، كانا يظنان أن الحب كفيل بأن يهزم كل القواعد ويحطم تلك القيود..

تأبط موسى أوراقه، وطرق كل الأبواب باحثًا عن فرصة عمل دون جدوى، وحين عجز، لم يجد سوى العمل على حنطور.. كان يثق أن إجادته الإنجليزية ستمنحه فرصة أوسع في العمل السياحي، لكنه لم يدرك أن السياحة نفسها كانت تحتضر، حتى اضطر لبيع العربة الحنطور، وعاد إلى مهنة أبيه، كأنه يسلم نفسه للقدر واليأس دفعة واحدة.

كان موسى يجلس على عربته يصيح في حماره، ويأكله الاكتئاب كلما مرّ به أحد زملاء الدراسة السابقين الذين تسنموا مناصب رفيعة ووظائف مرموقة بالوسائط والمحسوبية، وحين يحل المساء يعود من عمله الشاق معفرًا، وتفوح من جسده رائحة أنابيب الغاز وزفارة العرق..

يرسل نظرة منكسرة إلى الفتاة، وينكّس رأسه وينسحب في هدوء المنهزمين المستسلمين. وكأنه يقول لها:

آسف يا حبيبتي لم أعد فارس أحلامك لقد سقطت من على حصاني الخشبي لم يعد سيفي ماضيًا، أحارب طواحين الهواء.

مضى يجرّر قدميه مثل كسيح يعبر جداول مياه المجاري الطافحة..

قال لها: سوف أسافر من أجل أن أجمع مالا يغطى على سيرتي الأولى، وأمحو كل آثار كانت تدل على أنني سائق عربة كارّو فالمال يجعل الألسنة تخرس أمامه تغلق الفتاة نافذة بيتها، مطلقة تنهيدة متخمة بالحسرة، تختلط على شفتيها ذات اللون البني الداكن المُشرَب بلون بشرتها الجافة حروف منكسرة، بعدما خط الزمن على وجهها تجاعيد عميقة تشعر حين تراها بالانقباض لشدة ما يبدو عليها من حزن وقهر.

تسقط على كرسيها، وتدير مفتاح الراديو القريب منها، ينطلق منه صوت أم كلثوم وهي تشدو بألحان من السماء.

في شارع خلفي كان إبراهيم ابن عم موسى يشق بالعربة طريق المقابر ومكبَّات القمامة، هنا كلب أو حمار ميت، بامبرز أطفال، بقايا تراب من بيت تم هدمه.

يقف حماره أمام نافذة الفتاة، يشعل سيجارته في تلذذ، ويتناهى إلى سمعه أصوات موسيقى كأنها آتية من السماء. ينسجم الحمار فيبول في الشارع، يعلو صوت نهيقه على صوت الموسيقى العذبة.

يخرج إبراهيم من حالة العشق، يضرب بعصاه على ظهر الحمار فينطلق مهرولاً، يختار الحمار الشوارع الجانبية حتى يتجنب زحام السير، ليصل إلى محطاته في الأحياء الراقية للمدينة، وهناك يجمع "الخردة" وقمامة الأثرياء، ليعيد بيعها لمن يحتاجونها.

لا يذهب إبراهيم في هذه الرحلة الطويلة برفقة حماره فقط، بل يرافقه شقيقه الأصغر سنًا، وطفل آخر من أبناء شارعه، وحين يصلون يجمعون من مكبات القمامة، أو من أمام الأبواب ليصطادوا ما تيسر من قمامة وخردة:

كل لقيّة من لقيَّات إبراهيم لها زبونها الخاص، يشتريها منه في نهاية اليوم، هناك من يشترون بطاريات السيارات التالفة ليستفيدوا من معادنها، وهناك من يشترون الزجاجات الفارغة لإعادة تعبئتها، وهناك من يشترون قوارير المياه البلاستيكية التي تباع بالوزن ليعاد تدويرها.

يأخذ الأجهزة الكهربائية التي يعثر عليها مصادفة؛ وهي تعمل بحالة معقولة؛ هواتف عتيقة، مكواة كهربائية، أجهزة راديو قديمة، دراجات مكسرة، وغيرها ليستخدمها أو يبيعها لسكان الحي الفقير الذي يقطنه..

يقضي بياض يومه متجولًا في شوارع الأحياء الداخلية، يجمع خلالها ما تيّسر من أغراض، توفر له بعض المال حين يعيد بيعها.

يعود إلى بيته حاملا متطلبات البيت يرسم على وجهه ابتسامة رضا، قائلاً: "الحمد لله أحسن من غيرنا"

توقف الحمار مرة ثانية في انتظار أن تخرج تلك الفتاة من خلف النافذة المغلقة، والتي تنساب منها أنغام تبلغ مسامع إبراهيم وحماره الذى استطالت أذناه حتى شعر بهدوء فعاد مرة ثانية للنهيق والتبول.

سأل إبراهيم نفسه "هل من حقي أن أحب تلك الفتاة التي خلف النافذة المغلقة؟"

سرح بأحلامه التي بلغت عنان السماء، وتذكر أحاديث موسى عن الحب والعشق وأخذ يتأمل تلك الوجوه بنظرة مختلفة، لكنه استفاق على نهيق حماره هو ينظر له نظرة استخفاف واحتقار.

مرت جوارهم فرس بيضاء، نظر إليها الحمار ثم نكّس رأسه، عرف الإجابة منه ودون ضرب على ظهره انصرف الحمار.

سأل إبراهيم بخبرته في مجادلة النساء عن تلك الفتاة وعن أحوالها فعرف أنها أحبت ابن عمه موسى الذي فارق الحياة قبل أن يرحل إلى الخارج حيث صدمه وحماره قطار غاضب مزقهم إلى أشلاء..

خرجت منه تنهيدة عميقة.. انطلق الحمار ودون أن يضربه وصل إلى البيت.. وزّع مصروف اليوم على أبيه وإخوته، واشترى العلف للحمار، وراح يتحدث إلى حماره:

- هل يستطيع أحدنا أن يحب، ويأخذ نصيبه من الحياة؟..

هل تستطيع أن تعشق فرسه بيضاء وتخرج عن تقاليد الحمير؟

سمع نهيق الحمار، فهم أنه يقول له: "مستحيل"

أشعل سيجارته، وأحضر الماء، وأخذ يغسل حماره حتى رقد بجواره.

❊ ❊ ❊

ليل ونهار

انسللت من حديث أبي اليومي عن الماضي الجميل، وصعدت إلى سطح البيت مع كوب الشاي وسيجارتي، أقلب عيني في سماء الخالق أرقب النجوم، سقطت عيناي على المقابر، حيث الفناء يلتهم بمخالبه الحادة كل الأحلام.

هنا يرقد كل شيء في هدوء وسكينة. كل يوم تنبت الأرض بالقبور، تظللها أشجار الصفصاف والصبار التي تُروى في المناسبات والأعياد.

كوّن مجموعة من الأشخاص دائرة حول تلك القبور؛ كائنات الليل بدأت للتو في الخروج من كهوفها، أصحاب اللحى الطويلة والجلابيب القصيرة الهاربون من بطش الحكومة.

على الجانب الآخر من المقابر منزل العاهرة "سنية لبن"، تستقطب الفتيات الهاربات من قسوة الحياة، أو من أب سكير، أو زوجة أب، أو من عريس مُسن.

وعلى مسافة قريبة منها رشدي تاجر المخدرات الذي فتح نافذة لبيع الكيف تحت نظر الشرطة، كان يقدم لهم كل فترة واحدًا من صبيانه المارقين، أو أحد المنافسين لذبحه قربانًا، وأيضا العفاريت التي تجوس في المقابر ليلا فتهاجم الضعفاء.

ينتهي دورهم عندما تبزغ شمس الصباح، ليأتي دور جديد للكائنات النهارية.

يخرجـون كالنمـل للبحـث عـن الـرزق مشـكلين خطًـا منتظمًـا لا يحيدون عنه، من رائحة عرقهم تستطيع تميزهم عن سائر البشر.

جُبلـوا على تحمـل السـباب والإهانـة نظير لقمـة العـيش، بمجـرد الحصـول عليها يفرحـون ويعـودون حـاملين نتيجـة عـرقهم من لقمـة تسد رمقهم وادخار الباقي لحين مسغبة..

ثمّـة مـن يخـاف مـن تلـك الحيـاة فيسـتدين حتى يشـتري جنـاحين يحلق بهما خارج حياة المقابر، أما أنا فكان جسدي واهنًا ارتضى بتلك الحياة.

عاد والدي من جبهة القتال.. توقف سلاحه عن إطلاق الرصاصات التي يقتل بها العدو والخوف، سكن والتصقت حياته وحياتنا في تلك الدائرة التي أصبحت مغلقة،

ولكـن لـم أعـد أحتمـل المراسـم اليوميـة للجنـازات التي تمـر مـن جـواري، مـا زالـت كسـهم يوشـك أن يخترق صـدري ويمـزق أضـلعي دون أن يقـبض روحي، الصـبية تمطـر سـماؤهم بـالفرح والسـرور واللهـو حـول المقـابر.. الشيء الـذي يجعلني أشـعر بالسـعادة انتظـار الرحمة من الزائرين للمقابر أيام المناسبات.

حينما تسكت تلك الضحكات البريئة أشعر أن أعضاء جسدي تنتزع من مكانها فأوقن أنها النهاية، ويلتهمني اليأس.. إنها ليس أحجية أو لغزا، ولا فانتازيا حكائية أو سحرية، بل هي الحقيقة التي جمعت كل هؤلاء في بوتقة واحدة، كل منهم له دوره في الحياة. حتى لو كان عامل نظافة ينظف الأوساخ من على وجه الأرض يلقي بها في الجوار، ولكن الكل سوف يسقط في تلك الحفرة الضيقة التي يمر عليها أصناف البشر.. الشريف، واللص، والعاهرة.

ذات يوم ضبابي قارس البرودة يتراءى فيه المارة كالأشباح وجدتني أحمل مع الآخرين نعشًا، وقد طأطأت رأسي احترامًا لوجيعة جمجمتي التي أثقلت بأنين الصمت والهيبة!!.

بدأت أردد ما يقولون، كاسيًا وجهي بقناع من الحزن، وانفعال لا يكاد يتعدى تطفلي لمعرفة هوية المتوفى، وجنسه، وسبب وفاته. غير أن صورًا كثيرة تساقطت على ذاكرتي، وأنا أحصي بنظراتي وجوه المشيعين المكتوية بلهيب الشمس، والفاجعة، وأمسح صورًا حسبتها كشفت عن سيرة المتوفى وخبر وفاته، كان من بينها أنه شاب تجاوز العقد الثالث من عمره، وأنه آثر الرحيل مبكرًا لما كان يراه من انتهاك قسري لقدسية الحياة وسر وجودها، وأن وطنه الذي كان يؤمن به بات هو الآخر بلا وطن، وصورة أخرى تراءت من رجل كهل اتخذ من كوفيته لثامًا لدموعه.

المتوفى لديه أولاد كبروا، والدار التي آوتهم طوال تلك السنين لم تعد تتسع لهم، ومن المحال استبدالها، وأن الأغراب منذ أن سطوا على مدينته بات مرتعًا لضعفاء النفوس الذين يمتلكون فقط سياجًا ورقيًا يحميهم من بطش وغضب الأيام.

ومتهمًا دون جرم، والقانون بلا قانون، ولقد آثر الموت مبكرًا وبطريقة مبتكرة لاعتقاده وإيمانه بأن أهل البرزخ منصفون وسيطوون روعه.

توقفت تروس الحياة فجأة بموت كلٍ من القوادة (سنية لبن) وأصحاب اللحى الطويلة في معركة قوية، وأيضًا رجال الشرطة، المعلم رشدي تاجر المخدرات كلهم مروا من أمامي على النعوش، ولكن سرعان ما عادت تروس الحياة تدور من جديد.. نفس الأحداث ولكن بأسماء مختلفة.

وسقط الطائر المهاجر قبل الوصول إلى حلمه، لقد أتى من دول الخليج في صندوق خشبي، نعق الغراب فوق تلك الأشجار الخالية من الأوراق الخضراء.

أما الصورة الأخيرة فقد هوت مع إنزال الجسد مثواه الأخير ليوارى بالثرى!.. إنه بقامة متوسطة وعلى كفنه بقايا لأحلام سمراء... كسحنته، وقد قضى نحبه بفوضوية عشقه للسماء التي لا تخضع لحدود الطبيعة،

كأحلامه التي تسافر كالطيور دون أن يستوقفها جواز مرور أو وطن يجهل لغتها، وأن نهايته جاءت مكملة لتطلعات روحه التي آثرت أن تتبع الفردوس وتلحق به.

لكن الصورة التي ما زالت ماثلة دون تزويق، وأفزعتني كثيرًا هي جموع المشيعين الذين ما انفكوا من حضور مراسم التلقين والدفن حتى انفضوا مسرعين، وأصوات خفق نعلهم تعلوا أصواتهم، لم يبق منهم سواي، أحاول تمزيق الكفن وإزالة التراب والحجارة المتكومة فوق جسدي، لا تجدي صرخاتي، ولا توسلاتي بأحدهم ليعود وينتشلني مما أنا فيه، ولكن سوف أبقى.. كم كنت مجرد روح تمشي على الأرض، ميت على قيد الحياة، في انتظار الوقوع في تلك الحفرة الضيقة.

* * *

هلاوس

جلس المُخرج المسرحي على قارعة طريق خالٍ من المارة، أخذ يفكر بصوت عالٍ:

- أتمنى أن أقدم عرضًا مسرحيًا قويًا يليق باسمي وتاريخي.

أشعل السيجارة تِلوَ الأخرى، تمدد على الحشائش الخضراء ينظر إلى السماء ويراقب النجوم، تخيلَ أن السماء هي ستارةُ مسرحهِ، تُفتح بإشارةٍ منه،يتحكم في أداء الممثلين بنظرة من عينيه..

إضاءة خافتة، تتبع خطوات أول ممثل يقف على خشبة المسرح، وموسيقى عسكرية تتماشى مع خُطواتهِ المنتظمة.

جلس شابٌّ غزا الشيب شعره على حافة كوْمة رماد؛يستريح من المشوار الطويل، فقد أنهكه الألم، ربما يعلم أنه يسلك الطرق الخاطئة، ولكنه سأل نفسه أين الطرق الصحيحة؟!

الرؤية أصبحت ضبابية، ولا يوجد دليل أو علامات تنير طريقه في زمن التيه.

وقف ينفض عن أسْماله غبار الذل وركام العار، وعندما ارتعشت شفتاه بالنطق لأول مرة تساءل في ذهول:

- كم لبثتُ في كهفي نائمًا؟ عفوًا مستيقظًا بلا عنوان؟!ولم أكُ شيئا مذكورا

أيقنت أن القدوم نحو الطريق المُستقيم يحتاج دائمًا إلى صبر يصل إلى مرحلة الاصطبار.

يسمع خطوات أقدام تغدو ثم تروح، يلتفتُ حوله لا يرى شيئًا، يتكوّر حول نفسه دافسًا رأسه بين ركبتيه في ركن مظلم على خشبة المسرح، يبقي صامتًا في غياهب كهفه الذاتي، يردد حروف الراحلين والعائدين دون أن يعيَ لها معنى.

تتغير الإضاءة إلى لون أحمر قانٍ، وتُسلّط على ديكور على هيئة مغارة كبيرة، ينظر بخوف وفزع إلى الكهف المُظلِم، يتخيل وحشًا كبيرًا يهاجمه، ينتفض، يدافع عن نفسه بسيف من فخّار، يزمجر الوحش بصوت يتردد صداه بالمسرح، يرفسه ويلقيه على الأرضية،ينقض عليه ويلتهم كل ما تبقى من أحلامه ويرحل.

تخفّ الإضاءة تدريجيًا، ونزيف أحلامه يسيل على أرضية الصالة.

يظهر ظل يتحرك داخل الكهف، وتخرج أُم ثكلى مُتَّشحة بالسواد،ووجها مُعفر برماد محترق، فقدت أبناءها السبعة في معركة الحياة، كل ما تريده أن تدفنهم.

بحثَتْ عنهم في كل مكان فلم تجد جُثثهم.

تقف في وسط المسرح وتصرخ بنبرة ملأى بالحزن:

- أليس منكم رجل رشيد؟ يصرخ بملء صوته يوقظ النائمين، الذين اعتادوا ظلمة الكهف؟!

أصوات الجوقة تردد كلمات من خلفها:

- لن يبكوا الشمس إذا قتلها الليل، ولن يهتموا ببول الكلاب فوق رؤوسهم، ولن يبالوا بنتانة عيْشهم، هل رأيتم يومًا فراشة تموت من أجل الشمس،

وكل حُلمها أن تحترق في لهب شمعة؟

جثَتْ على ركبتيها ورفعت يديها إلى السماء تشكو لربها..

تَخفُت الإضاءة تدريجيًا وتتسلط على موضع آخر. صحراء واسعة لا آخر لها. ويظهر رجل كفيف يحمل كتبًا وأوراقًا صفراء في يد، وفي الأخرى عصًا يتكئ عليها، ودُمية لشخص جميل محشوة بالقش.

عند أقرب تلة رِمال قابلتْهُ وضع الدُمية برِفق بعدما قبّلها،نزلت قطرات دموع حارقة من عينيه،هبّت عاصفة رملية أخفت الكثير من ملامحه، انتصب فجأة على عصاه، وأخذ يصرخ قائلًا بنبرة يملؤها الغضب والحزن:

- وحين علموا أنّ فيك من عفو يوسُف ألقوْكَ في البئر وسط تماسيح الحياة التي لا ترحم،

فليذهب أحدكم بقميص ولدي ويرمِه علي قلب كل أب وأُم فقد ثمرته التي كان في انتظارها حتى تنضج؛ لعل بصيرة الحب والحنان ترتدّ إليه، وتعوض لحظات الحرمان!

فليذهب أحدكم ويرده إلي قلب كل أُم موسي بعد أن أهلكها البعد والفراق...

ليت أحدكم يرده إليَّ أو يرد بضاعتنا المُزجاة أو يأتينا بخبر منه، أو نراه في المنام إنَا للرؤيا لمصدّقون! إنَّا للرؤيا لمصدقون!

يلتقط الدُمية ويحتضنها ويضعها أمام عينيه ويحدّثها وهو لا يراها:

- كفى يا يوسف، لا تقُص رؤياك على أحد، فالعقل ملغوم بالجهل، والنفس مجبولة على الطمع،لا تقُص رؤياك في ضجيج الجهل،لا تقص رؤياك على إخوتك فيكيدوا لك كيدًا، تنحى جانبًا وابتلع ما سوف تقوله،أصمت حتى لا يرموك في الجب، ولى زمن النصيحة والكلمة الطيبة، كم نفسًا تحتاج لكَتْم أنفاس عهر المزيفين؟

- سوف أظل حبيس تلك الجدران حتى تعود وتُخبرهم بأن الحياة مازالت مثالية.

شعر بوجود تمثال منتصب على قمة الجبل، تملكه الغضب ، أمسك حجرًا وقذفه، لكن كيف لكفيف أن يصيب هدفا ؟

تبرُق السماء وترعُد، يقسِم البرق التمثالَ نصفين، يصرخ المُسنّ:

- أيها الكاهن، أفرش دفاترك الملونة بالكذب، وسافر بين أمعائي الخاوية، وتعال نَعُدّ كم ألفًا من السنين لبثنا في الكهف، نعجن خبزنا بروَث الذّل، ونغمسه بعرق القهر. كلّما سقط تمثال من عرش الجبل المرصع بالدم، التهبت كفاي بالتصفيق، وما أن تعافيتُ من ألم الكف حتى اعتلي عرش الجبل ظالم جديد ..

في هذه اللحظة راحت الأُم تتكلم بصوت حزين يئن:

- أصبحتْ أرواحُنا جاثية على مَرأى من أبصارنا، آيلة للسقوط في حياة البرزخ، تاركةً حياةً فانيةً باليةً، مدنّسةً بأفعال مَن هُم مِثلنا.

أصبحت تلك الحياة غير عادلة، لا تعرف للمساواة طعمًا ولا للعدل رائحة.

يعمّ الظلام المسرح، يستيقظ الجمهور من نومه مفزوعًا على صوت ارتطام قطع الديكور وسقوطها على أرضية المسرح.

إضاءة بيضاء زاهية باللون الأزرق تشتد تدريجيًا، يعتلي المسرح رجل روحاني يعرف كيف يستحضر الأرواح الفاسدة التي مرت عبر التاريخ.

تزدحم خشبة المسرح بالأشباح، تضيّق عليه الخناق، تخنقه وتدهسه تحت الأقدام، يصرخ صرخةً مكتومةً، وتعلو قهقهة الأشباح مولية الأدبار، تاركةً الرجل بعد أن تحول لدخان بخور كريه الرائحة يتبدد في فضاء المسرح.

يطغى لـون أرجـواني على خشـبة المسـرح، غابـة تحترق، أصـوات حيوانات تعوي من ألم الحريق، وناس بدائيون لا يرتدون سوى ما يستر عوراتهم، يهربون من جحيمها، دخان كثيف يغطي المكان، ينقشع عن نهار واضح، ومن الكهف يخرج رجلان وامرأة راغبين في حياة أفضل،يصرخ الرجل الأول:

- نقول لمن سرق منا حياتنا، قبل أن تتذوقوا قطرات الدّم اللزجة على ألسنتكم الحسّاسة نعتذر عن مذاق مرارتها، وقبل أن تنقطع العقدة ذات الأشواك النافرة من الحبل المتدلي من قصوركم الفارهة، التي قد تجرح أيديكم الناعمة نعتذر عن ملمسها، لكن ما قيمة الحقيقة إن لمْ نرَ العظم تحت الجلد الناعم، وهو آخر ما يبقى من الجسد، ورؤية الجمجمة خلف الوجه هي الفكرة الوحيدة الباقية، التي يتحصن بها الذين لم يروا حقيقتكم حتى الآن!

بين الإثنين وقفتْ الأُم تلطم وتولول:

- ذهبوا للحرب، ولم يعودوا، مئات الرتب والنياشين والأنواط حصل عليها القادة، ولم يعودوا، زفّوا للناس خبر النصر لكنهم لم يعودوا، زُينَت الشوارع بالأعلام ووزعت السكاكر على الأطفال في المدارس، لكنهم لم يعودوا، وعبر أثير المذياع أُذيعت الأهازيج والأغاني فرحًا بالنصر، لكنهم لم يعودوا، ولن يعودوا، وفي النهاية نام الوطن حزينًا على جرح أصاب ظفر الحاكم وهو يقلمه.

احتضن الكفيف دُميته، خرج الكلام ممزوجًا بالدموع:

- شنقوا الطيبة على مشانق الشك، صلبوها بمسامير الخسة على صليب الغدر، أهلًا بك في زمن العواطف المُعلَّبة.

أنت الآن على بُعد سنوات ضوئية من الطيبة، تفصلك عن الحب والعاطفة والإيثار، لكن لا تقلق، شعارنا المتبع

"ملح كثير، طعام قليل، مرارٌ.. حدِّث ولا حرج".

انضم شاب بائس إلى صفوفهم وأخذ يحكى:

- إذا كنا نخادعكم بهلوستنا فما جدوى سرد شيء منها؟

إذا كنا سنقفز من تلك الحياة التى أوهمتمونا بأنها رخية ووردية، فسنقفز في الحفرة التي قد هيأتموها لنا، إذن فلنقص عليكم تفاصيل كل الهلوسات الثلاث التي تكررت مراتٍ ثلاث في أمكنة ثلاث، بلا اختلاف في المرئيّ والمسموع سوى أنها هي التي نرويها لكم الآن..

تشدو الأوركسترا بموسيقى جنائزية فخمة، يكمل الشاب حديثه:

- وُلِدتُ في حي طاعن في السن، لكنه سينتفض من سباته ويزيح عنه ترابه، ويغطي أحذيتكم اللامعة غباره المتطاير إلى مستوى الكاحل.

جاءت الرياح حبلى قويّة من بلاد الشمال، ربما شعرتم بها أو لم تشعروا فذاك لا يهم، وقبل وصولها إلى المزرعة المُسيّجة عند بيوت

العمّال الفقراء أبادت كل شيء، بعدها أصبحتْ منازلا لمشرّدي الحياة.

هناك عند المقابر التي ستلاحظون أنها مُترامية الأطراف، ومطليّة بلون فاقع رغم اقترابها من السماء ودنوّ المساء، وخُفُوت ضوء المصابيح،تجدون كلبًا يشارك في النياحة من أجل أعزّ الباقين على قلبه. تفاوتت الأماكن والمناظر والمناخات التي عوى فيها معهم، وهو ينوح على أعز الناس،لم ينقطع عواؤه،ولكنّ صدره تجوّف من الداخل وتلاصقت جدرانه كقربة ماء امتصّتها شفتان شَرِهتان، ولم يتبقّ فيها حتى الهواء،صار صوتُه أخفض، وارتفع مستوى اللوعة المنبثقة من وجدانه، يستشعر اضمحلال الطاقة التي تمدّه بها حباله الصوتية، لكنه لم يصمت.

تصمت الموسيقى فجأة، صرخات المهمشين تعلو حتى تصم الآذان ، يرمي الرجل الكفيف دفاتره وأوراقه، يقول وهو يتكئ على عصاه:

- إن كنا سنمحو حرفًا زائدًا فسنمحو ما جرى في الجلسة التي تلتْ ذلك، والرجل المكلّف بمهامّ الاستضافة يشقّ أرغفة الخبز أنصافا،ويحشوها بسائل من الوهم المُلطّخ بالتراب، والذّل يتدلّى من الملعقة الخشبية الكبيرة،يوزّعه عليهم فيأكلون بلا نهم وبلا تقزز،التأنيب هو ما كان يملأ جوفهم وليس طيش الأمعاء الذي من عادته أن يتبختر كبشير بالقيء.

في الكالوس وقف المخرج مشجعًا بعينين دامعتين، أشار للرجل أن يتكلم:

- إن كنا سنتخطى بما لا يُعقل فسنتخطى شعورهم بلاعقلانية ما يحدث، وتذمرهم من استمرار المناحة على الرجل العزيز، الذى رحل من الواقع وأصبح في كتاب قديم.

ولأنهم نفخوا في بوق الاستدعاء الفوري،وفتحوا أحد الأبواب الخمسة الفولاذية الصدئة التي بدت في جدار السور الهائل كفتحات صغيرة للرؤية،وأمروا الموجودين بالمساعدة في إطفاء نار تزحف باتجاه الجنوب بفعل الريح الشماليّة،سترؤن الورق وباقي الهشيم تتطاير به الهبوب المنخفضة وتحطّه، ثم تقفز به ليرتطم بالأرضية مرة أخرى،واللهب اللافح يفحّ وهو يتنقل من شجرة هرمة إلى أخرى،البعض قفز من علوّ سور كيف استطاعوا أن يتسلّقوه! ،وقد وجد أنّ الباب مسدود بحواجز بسُمك قرون من الخرافات، ترتفع إلى مستوى الرقبة، فكاد أن يصيح بهم.

تكمل الأُم الحِوار:

- ما فائدة فتح الباب المغلق ؟!

ولكنّهم من خلف الحواجز،رأوا كل واحد منهم يُفرغ وعاءً مليئًا بالماء على النار،ويجري إلى الداخل باتجاه امرأة،يعتليها فيضاجعها مباشرة،وكلّ تحرّكاتهم لها نفس التشنّجات ونفس الوقع الدامي للمعارك الخالدة. عندئذ تملّكه حماس لا يضاهى،

ووَجلَ قلبُه داخل صدره،وطنّت في أذنه نداءات ذات إيقاعات بطيئة كمواويل أرباب الموالد،وانطلق من حنجرته عواءٌ حاد،جرى في عروقه دم كان يجري في عروق أجداده وهم يقتحمون الأسوار،ويكسرون بسواطيرهم المتاريس الخشبية في المعارك، ويحلمون بالسبايا الجميلات، وغنائم معركة

تحمس الشاب وخلع نعليه وقفز فوق خشبة المسرح:

تدفق البلل من شدقيه وإبطيه والمعبر الرئيسي للرغبة،وتسلّق السور الحجريّ بدوره، بأظافر لها صلابة وبرودة وقوة الفولاذ،وقفز في وسط النيران هو لا يدري كيف فعل!.

يُمسِكه الكفيف وهو يمر من أمامه، يربّت على ظهره ساخرًا:

- إن كنا قد اعتدنا على غضّ البصر فإننا سنتجاهل أنه وجد معشوقته مستلقية وساقاها منفرجتان، وفتى جاثٍ على ركبتيه يكاد يفرغ من الحصول على مكافأته،رأى كرامته تُمتهن أمامه فهاج وماج،وهاهنا بدأت الأماكن تتفاوت والمشاهد تتغيّر بتسارع،

ففهم الأمر على أنه مضيعة للوقت ريثما يتم الفتى مسعاه ويطلق ساقيه للريح،إن كنا سنغفل شيئًا مما جرى له فسنتجاهل أنه بعد تكرار هذه الهلاوس للمرّة الثالثة،أصبح يعتبر أنّ الحياة بلا جدوى؛

ما دامت مشاهدها تبدأ بفقدان عزيز، لتنتهي باغتصاب حبيبة لا يملك القدرة على إنقاذها وامرأة مسنة فقدت عكازها فى حياة تهاجمها مثل رياح صرصر عاتية عصفت بهم، وأخذتهم دوامة الحياة و دفنوا في ترابها..

يَعمّ الظلام المسرح، يتخبط الممثلون في بعضهُم وفي قطع الديكور عند خروجهم، يُكمل الجمهور نومه بعد أن هدأ الجو وراح الضجيج إلا من رجل يمر بين الصفوف يعرض عليهم أكياس الفُشار وعلب المشروبات المعدنية.

يفتتح الفصل الثالث بدوامة هوائية تكاد تقتلع الديكور من مكانه، وثعبان يزحف من يسار المسرح خلف قنفذ يجري منه هربًا دون أن يفكر في التكور والاحتماء في معطفه الشوكي.

نفس القهر يتكرر بلا نهاية في خلفيّات لا يتغير منها إلا أماكنها وطقوسها وأناسها في كل حين؛وكل ذلك لتبقى الحوادث دائمًا مشحونة بالقدر اللازم من الفجيعة وهول اللحظة الآنية، البشر والأرض والأيام والليالي ولا تنسوا المذاقات أيضا،كلها مسامير متخلخلة لينة تثبّت الورقة الرخوة على الجدار الهشّ، لذلك قرّرنا التخلي عنهم جميعًا،ونفّذنا قرارنا على الفور.

أطلقنا أجنحتنا، واستولدنا أنفسنا من جديد، مثل الصقر الذي قارب على الموت فحطم منقاره وعاد ليحلق في فضاء الحياة، فلا شيء عنده يستحق الحداد!

شدت الجوقة بأنشودة الختام:

لم يعد ثوب الحزن يليق بكم

اخلعوه عنكم وانهضوا

وقبلوا الصباح لتشرق الشمس

تبسموا لتلمع نجوم المساء

فدونَكم تتوقف الأرضُ عن الدوران.

انتهى العرض ورحل الممثلون واختفت صور المتفرجين، وأُسدل الستار على وجه السماء، فاستيقظ المخرج من غفوته وراح يركل كل ما يقابله، ودموعه تتساقط على أرضه الفارغة من الحياة.

❊ ❊ ❊

برزخ الحياة

انتظر الابن حتى سئم الانتظار، توجعَ حتى باتَ الوجع ظلا له، كاد الوجع يقضى عليه لولا أحلام الفرح المرسومة في صورة الأب المعلقة على جدار المنزل، يتسرب بصيصها إلى حياته تارة، يستحضرُها بين أحضانه تارةُ، يقرأُ رسائلها، يستنشق رائحة التراب العالق على أصابعه.

في هذه الأثناء يُطرق الباب بطرقات حسيسة يكاد لا يصدق ويغشى عليه، أيكون الأب هو الطارق، بنفسٍ مقتضبٍ وكأنَّ قذيفةَ موتٍ تطبِقُ على صدرِه نطق:

- "مين على الباب"؟

يُطرَق البابُ مرةً أخرى وينهارُ معه قلبٌ صمدَ فترةً طويلةً أمامَ الغيبوبة، يخفق بسرعةٍ، يزداد تدفق الدم في شراينه حد الانفَجار، يحاول التقاط أنفاسه، بدا الأمر مُحالا، فشل في التوقف عن البكاء، أن يستعيد قوته التي كانت تكتسحه قبل ثوانٍ معدودةٍ.

إنها ذاتها يد الأب التي تطرقُ الباب، هي طرقتُهُ التي كادَت تودي الابن إلى الهلاك، الطرقة التي ستعيدُ الماءَ والوردَ إلى صحراء قلبه الجدباء،

يُفتَحُ البابُ، يكاد صرير الباب أن يقتله، يبكي بحرقة، يستجمِعُ بعضاً من بأسه ويصرخُ: "بربك من أنت "؟

يرى خيالَهُ يقتربُ شيئاً فشيئاً، صوتُ ارتطامِ نعلهِ بالأرضِ يخبره بأنه هناك مع أناس طيبين يجلس على قمة الجبل، يلملم شظايا قلبه وشتات جسمه، يجمع أحلامه المهشمة فقد تفتَح لون بشرته، واندثرت تجاعيد الهم والحزنِ، استرجع نعومةَ أصابعه، حمرةَ وجنتيه، وبريقِ عينيه، وحيوية شفتيه فقد دبّت الروحُ فيه بعد الموتِ وكأنهُ بعث للتو.

يقفُ الابن في ثياب مخضبةٌ بدماءِ جراحِهِ، تَغمِضُ عينيه ويعاوِدُ الانهيارَ من جديد، يتلاشى كل هذا باحتضان الأب، حضن يكسر ضلوعه، وضمة تكادُ تهشمُ عموده الفقري، كانت لحظة أشبهُ بعناقِ الشمس للقمر في الخسوف، عناقِ القمر للشمس في الكسوف، ذهب معه إلى حيث قمة الجبل.

رأى دموع أبيه تخرج، وقد تشكلت على هيئة أحجار وبعض حطام أشجار جافة، أشعل نارا وأخذ يلقى عليها بعض الدموع، هبت رياح الخوف والفزع يحاول أن يمنعها من أن تطفئ النار، وعندما توقفت النيران .

ألقى الأب بجسده فيها حتى لا تنطفئ، أصحو من نومي على صوت صراخ أطفالي الجوعى، أفعل ما كان يفعله أبى.

❊ ❊ ❊

أبْوابٌ مُغلَقةٌ

الصُرَاخُ الذي شَقّ فَضاءَنا الهَادِئ فَجْأَةً يخْرُجُ مِنْ غُرفَةِ يوسُفَ. هَرْولَتْ أُمّي نَاحيتَهُ وَقَدْ امْتَقَعَ لون وجْهِها، كَانَ يُشَاهدُ عَلَى حاسُوبِهِ فيدْيو لأصْدِقائِه الّذينَ كانُوا معَهُ فِي المَيدانِ، جُثثٌ مُشَوّهة مُلقَاةٌ فِي كلِّ مَكَانٍ، وأصْواتُ الرَّصاصِ تُدوّي، المَشْهَدُ مُروّع.. وأخي مُنْهارٌ وَيَبكِي بحُرْقةٍ.. !

تَجاهَلَ حُضْنَ أمّي، خَرَجَ وَصَفَقَ البَابَ بقُوّةٍ، أخَذتْ تُنادِيهِ، لكِنّ البَابَ المُغلقَ مَنعَ صَوْتَها منَ الوُصولِ إليْهِ، تلكَ هي المَرّة الأُولَى والأخِيرَة الّتي تُنادِيهِ فِيها ولمْ يَسْتَجِبْ لندائها.

شَدّت أمّي كُرسِيًا، وبقِيَتْ تَنتَظِرُهُ خلْفَ البَابِ، يُغلِّفُ قلْبَها أَمَلٌ ممزوجٌ برجاءِ أنْ يَعودُ يوسفُ يَوماً، وتُعاتِبُهُ علَى خُروجِه دُون أنْ يُقبّلَها.

ومن وقتها أضْحَى الحيّزُ الضّيّق مَا بَيْنَ البَابِ وشُرْفَةِ المَنْزِلِ كُلَّ عَالَمِها، عَلّ رِيحَ يوسُفَ تَصِلها، أوْ علَّ بُشْرى خَبَرِ قُدومِهِ تُفْرحها. تَوقّفَ عَقْلُ أمّي عِنْدَ تِلْك اللّحْظَةِ؛ لحْظَةَ خُرُوج يُوسُف وإغْلاقِهِ الْبَابَ. كَادَت عيْناهَا أن تبْيَضّا منَ الحُزْن، تَنظُرُ في أسًى إلَى قَميصِهِ الأبْيضِ الّذي أحْضرَتْهُ لهُ، وصمّمَتْ أنْ يَكونَ لِعُرْسِهِ، تَتَحسّسُه، تَحضُنُه، تُقبّلُهُ وتضَعُهُ بِجِوارِ بِذْلَةِ العُرْسِ. تنَظّفُ غرْفتَهُ، تُرتّبُ

كُتبَـهُ، ابْتسَـامةٌ خَفِيّـةٌ تَصْـدُرُ مـنْ قَلْبِها كأنّهـا تَـراهُ أمَامَهـا، وتُعاقِبِـه علَى فعْلتِه، تفْتَحُ ذِرَاعَيْها تَهُمّ بِضَمّه...

"خلاص يا حَبِيبي... يا يُوسُفي مسامْحاك"

تَسقُطُ علَى الأرْضِ عنْدَما تُمْسِكُ بالخَواءِ!

تظَلُّ قابِعَةً علَى الأَرْض، تَرفُضُ مُحاوَلةَ مُساعَدَتي لها، تَنْهَرُني: من أنتِ؟ ابْتعِدي، أنا مَازِلْتُ قوِيّةً.. سوْفَ يرْفعُني يُوسفُ إذَا سقَطْتُ ويقِفُ إلى جَانِبي عنْدَما أمرَضُ، سوْف يرْقُدُ بجِوارِي حتى إذا أحسستُ باقْترابِ الأَجَلِ يُلقّنني الشّهادتيْن، وهُو منْ سوْفَ يَحْملُني لمَثْوايَ الأَخِيرِ.

خِفتُ علَى أمّي أنْ يَكونَ الخَرَفُ قدْ أصابَها؟!

لقَدْ نَسِيتْ منْ أكونُ...!

ذَهبْتُ أبْحثُ عنْه، رُبّما أجدُهُ حيًّا أو حتّى ميتًّا، فأُحْضِرُه لأمّي.

شَعرْتُ بالاخْتِناقِ، بالجُدْران تُطْبِقُ علَى أنْفاسِي، قلْبي يَكادُ يَنْفَجِرُ، الرُّعْبُ يَتلَبّسُنِي، يُمسِكُ بخِناقِ تَفْكِيرِي، فِي ثانِيةٍ مِنْ غَفْلةٍ يَتَراكَمُ الضّبابُ... يَتكاثَفُ، تَغيمُ الرُّؤى، يَغيبُ العقْلُ... وأنَا أهْوي، سَكاكينُ تبرُزُ، أنْيابٌ حادّةٌ تَغرِزُ أنْصالَها فِي جَسَدي، تُقطِّعُ لَحْمي، تتَطايَرُ درَجاتُ السُّلّمِ أمَامَ نَاظِريَّ، تَفتَحُ أشْداقَها، تُطْبِقُ على الجَسَدِ، أُواصِلُ الانْزلاقَ السّريعَ، أشْتَمُّ رائِحتَهُ، تَهْوِي الرّائِحَةُ،

صَوْتُ يوسُفَ، صَرخاتُ أمّي عَلى وَلدِهَا، وَجَعٌ قَاصِمٌ يَعْتَصِرُنِي، تَغِيبُ الدّنْيا، يَغيبُ الوُجودُ...

أصْدِقاؤُهُ قَالُوا: لَقَدْ مَاتَ. احْترَقَتْ جُثّتُهُ مَع الشّهَداءِ.

يَنْخُرُ جَسَدِي الألَمُ، يُمَزّقُ الخَبَرُ أعْصَابِي، سَيَكونُ هَذا الخَبرُ أشْبَهَ بصَاعِقَةٍ!

كَيْفَ سَأُقْنِعُ أمّي بأنّهُ مَاتَ مُحْتَرِقاً؟!

تَمنّيْتُ أنْ أجْمَعَ رُفَاتَهُ لِتَشُمَّ أمّي رَائحَتَهُ عَلّهَا تَصْبِرُ عَلى فِراقِهِ وَتسْترْجِعُ صَوابَهَا وتَعُودُ كَمَا كَانتْ..انْتابَنِي سُؤالٌ أخيرٌ بإجابَةٍ مُرْعِبَةٍ:

أيْنَ هُمُ الّذينَ احْتَرَقُوا؟

تَبخّرُوا عَنْ آخِرِهِمْ

نَظَرْتُ إلَى أمّي نَظْرةَ شَفَقَةٍ وَحَنانٍ، أصْبَحَتْ كطِفْلةٍ صَغيرَةٍ تَنْتَظِرُ أبَاهَا الّذِي رَحَلَ!

بَدأتْ أسْنانُهَا تتساقطُ، زهِدتْ فِي الزّادِ والمَاءِ، غَزَا البَيَاضُ سَوادَ شَعْرِهَا، وهِي مَا زَالتْ تَنْتَظِر...!

لَمْ أكُنْ أصَدّقُ يَوْمًا أنّ تِلْكَ المَرْأةَ الّتي كَانتْ بِالأَمْسِ قَويّةً ستَتَداعَى اليَومَ هَكذَا! كحائِطٍ عَتيق، فمُنْذُ رَحِيلِ أَبي أصْبَحَتْ هِي رَجُلَ البَيْتِ، أَلْقت الحَيَاةُ جَمِيعَ كَلاكِلِهَا عَلى كَاهِلِهَا، تَخْرُجُ كَلَّ صَباحٍ

مُرْتَديّـةً زِيَّ الرّجَـالِ، تَبْحَـثُ فِي دُروبِ الحَيَـاةِ عَـنْ رِزْقِ أَطْفَالِهَـا، وتَعودُ أمًّا حَنونًا، محمّلةً بالخَيْرِ الوَفِيرِ والحُبِّ!

كُلّما طَلَبَ يُوسفُ شَيْئاً، لا تَتوانَى فِي تَلْبِيتِهِ.

كَبرْنَا، وعَرِفْنا أَنّها كانَتْ تَقِفُ عَلى نَاصِيّةِ أبْعَدِ شَارِعٍ عَنْ حَيّنا، تَبِيعُ عَلى عَرَبتِها فُولاً وَطَعمية...!

أمَامَ القَـويِّ تَقِـفُ وَقْفَـةَ الأشِـدّاءِ، وتَـرْحَمُ الضّـعَفاءَ، فتُعطِيهِمْ بِلاَ مُقَابِلٍ. رَفَضَتْ كُل مَنْ طَلَبَ القُربَ الحَلالَ، قائلةً:

-أنا مُتزوّجَةٌ مِن ابْنِي يُوسُف وَلَدَيّ بِنْتٌ..لاَ مَكَانَ للْغُرَباءِ فِي بَيْتِنَا.

فَتَحَ اللهُ عَلَيها بَابَ الـرّزْقِ، تَحَوّلتِ العَرَبَةُ إلَى مَطْعَمٍ، عَلّقَتْ عَليْه لاَفِتَةً مَكْتوبٌ عَليْها: "مَطْعمُ يُوسُف".

غَـابَ يُوسُـفُ، فَغَابَـتْ مَعـهُ ابْتِسَـامَةُ أمّي التِي كانَـتْ تَنْثُرُهَـا كَزُهـورِ الرّبِيـعِ فِي كُلِّ مَكـانٍ... تَـرَنّحَ شُـموخُهَا، اخْتَـلَّ نِظَـامُ عَالَمِهَـا، وَغـاصَ عَقْلُهَا فِي دوّامَةِ النّسْيانِ، لَمْ تَعُدْ تَتذَكّرُ أيّ شَيْءٍ، الْتَوَى لِسَانُها فِي حَلْقِهَـا فأصْبَحَ فَهـمُ مَـا تُريدُه صَعْبًا، والتّـأقْلُمُ مَع الوَضْـعِ فَظَيعًـا، والتّعامُلُ معَ امْرأةٍ كَبِيرةٍ تَحوّلَتْ لطِفْلةٍ تَقْضِي حَاجَتَها فِي أيّ مَكانٍ وتَـرْفُضُ الاسْـتِحْمَامَ حتّى أنْتَنَـتْ مُريعًـا. حِـينَ أقْتَرِبُ مِنْهـا تُجْهِـشُ بِالبُكاءِ، تَصْرُخُ وتَرفَعُ يَديْها حذاءَ وَجْهِهَا كَمنْ يتّقِي عِقَابًا... أحْضُنُها رغَما عَنْها... أوَشْـوِشُ لَها... أقَبّلُهَا... أقُـولَ لَهَا: يَا أمّي، يُوسُفُ مَاتَ، وَلَنْ نَراهُ ثَانيةً، عُودِي إلى رُشْدِكِ...

جَاءَ الرّدُّ صادِمًا: مَنْ يوسفُ؟

تَوَقّعْتُ أنْ تَنْسَى كَلّ شَيءٍ عَدَا حَبِيبَ قَلْبِهَا...أمْسِ فَقطْ كانَتْ تُنادِيه في نَوْمِها... هَلْ قُضِيَ الأَمْرُ يَا رَبّي؟ وأضْحَتْ كُتْلَةُ النّشاطِ والحَيَويّةِ مُجَرّدَ جَسَدٍ مُنْفَصِل عَنِ الدّنْيا؟

انْخَرطْتُ فِي بُكاءٍ مَرِيرٍ، وَددْتُ لَو أصْبحُ مِثلَها ليخْتفِي ألَمِي ويَنْزَاحَ وَجَعي... تَرْفَعُ رَأسِي يَدٌ طالمَا أحْبَبْتُ خُشُونَتَها الحَبِيبَة... وفِي العَيْنَينِ المُنْطفِئتَيْنِ رأيتُ شَيْئًا يُشْبِهُ النّورَ... وسَمِعْتُ مِنْ غَيْرِ صَوْتٍ: "عِنْدمَا تَرْتعِشُ اليَدُ، فَيسْقُطُ الطّعامُ عَلى الصّدْرِ، وَلا أقْوَى عَلَى ارْتِدَاءِ الثّوْبِ، فالصّبْرَ... الصّبْر... تَذَكّري مَنْ عَلّمَكِ مَا تَسْتَطيعينَه اليَوْمَ...!

لَمْ أعُدْ أنِيقَةً وَلا جَمِيلَة الرائحة! فلاَ تَلومِينِي وتَذكّرِي كَمْ تَعِبْتُ لأجْعلكِ أنِيقةً تَفُوحُ مِنك الرّوائحُ الزّكيةُ... كُوني معي الآن... الأمَّ... فأنا الطّفْلةُ...!".

عُدتُ للْبُكاءِ وأنا أرْنُو إلى تِلكَ الصّورَةِ المُعَلّقةِ فِي الحَائِطِ، وَقَدْ نَخَرَها سُوسُ الحُزْنِ وأصْبَحَتِ الوُجُوهُ أشياءً قَدِيمَةً، قِطَعاً مُمَزّقَةً طَالَها الزّمنُ..

حتَّى انْحَنتْ وَنَخِرَها سُوسُ الأَحْزانِ، ثُمَّ سَقَطَتْ فِي بِئرِ النِّسْيَانِ.

هَؤلاءِ الواقِفُونَ بِجِوارِي قِطْعَةٌ مِن سِنينِ الحُلْمِ والفَرحِ والأمَلِ، وَعُمْرٌ انْصَرَمَ وَلَنْ يَعودَ.

مَسَحْتُ دُمُوعِيَ، وَعُدْتُ لِأُمِي، احْتَضَنْتُهَا كَأنّها طِفْلَتِي!

أقسمتُ في نفسِي أَنني سَأشَارِكُها النظرَ للبابِ المُغلقِ في انتظارِ الغَائبِ!

* * *

الفهرس

إهداء ٥
بداية الحكايات ٧
بطون خاوية ٩
رصيف ١٤
علبة سجائر ممتلئة ١٧
حلم مؤجل ٢١
صخب الأحلام ٢٧
يد خاوية ٣٤
روح تسكن الجدار ٤٠
جنون لذيذ ومشتعل ٤٧
لا تتركين جرحي يستريح ٥٤
تمزق ٦٠
عربة كارو ٦٤
ليل ونهار ٧٠
هلاوس ٧٥
برزخ الحياة ٨٧
أبواب مغلقة ٨٩

دار إضافة
للنشر والتوزيع

الإسكندرية
ج . م . ع

www.Idafabooks.com